كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهاب

شرح الأستاذة

أُناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّوجلَّ-، فما ظهرلكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهرلكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفرالله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الأول

كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهاب

اللّقاء الأوّل _____ ٤

اللّقاء الثّاني _____ ٤٨

اللّقاء الثّالث _____ ٩٢

«الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ» _____ ١٠٥

«عقوق الوالدين» _____ ١١٦

«قول الزّور» _____ ١٢٦

اللّقاء الرّابع _____ ١٢٨

اللّقاء الخامس _____ ١٦٨

« باب ذكر الكِبْر» _____ ١٦٩

اللّقاء الأوّل

٢٦ ذي الحجّة ١٤٣٩هـ

شرح آية ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم﴾

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة حول أهمّيّة وراثة العلم وتوريثه

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مُباركًا ونسأله بمنّه وكرمه ألّا يحرمنا من مجالس العلم، وأن يحفظ علينا هذا العلم العظيم، وأن يجعلنا من ورثته، ورثة جنّة النّعيم.

مجالس العلم نعيم معجّل لأهل العلم:

هذا نعيم معجّل لأهل العلم أن يذوقوا شيئًا ممّا يجتمع عليه الخلق يوم القيامة في جنّات النّعيم من النّعيم، وقد ورد أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أخبر عن مجلسه في مسجده في المدينة أنّه روضة من رياض الجنّة «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ»[1] وهذا المكان الّذي هو بين البيت والمنبر، كان هو مكان اجتماع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بأصحابه، وهو مكان تعليم النّبيّ -صلّى الله عليه

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢).

وسلّم- لأصحابه فأصبح بذلك روضة من رياض الجنّة؛ لأن ما يذوقه أهل العلم في مجلس العلم إنّما هو قطعة من الجنّة.

فنسأل الله -عزّ وجلّ- ألّا يحرمنا بذنوبنا من هذه النّعمة، وألّا يجعل توفّرها وتيسّرها سببًا للبطر عليها، فإنّ كلّ شأن من شؤون الحياة يُرزقه الإنسان ولا يشعر بالنّعمة، ولا يشعر بالمنّة من الله تجاهه، ومن ثمّ لا يشكره يذهب، وكما ذكر عن الحسن أنّه:

"قلّ نعمة تذهب عن قوم فتعود إليهم" يعني إذَا ترحّلت نعمة من النّعم بسبب قلّة الشّكر لا تعود لهؤلاء مرّة أخرى! فإنّه يقول: "قلّ أن تعود إليهم".

فنرجو من الله أن يعاملنا برأفته ورحمته، ويغفر لنا تقصيرنا وإسرافنا وعدم عنايتنا بشكر هذه النّعمة العظيمة، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يزيدنا ويزيدنا من هذه النّعمة ومن النّعم الّتي تُحيط بها، من نعمة الفهم، ومن نعمة الإدراك، ومن نعمة السّمع، ومن نعمة البصر، ومن نعمة الكتابة، ومن توفّر كلّ شيء حولنا الحمد لله ربّ العالمين.

العلم ميراث الأنبياء إذَا انقطع الإرث أتى الّذين من بعدهم فقراء!

فأنتم الآن أيسر ما يكون مُدّ إليكم بالمصحف لكن لابدّ أن تعرفوا بأنّ هناك ديارًا كثيرة يتقاسمون صفحات المصحف لأجل أن يحفظوها! وكثيرة بمعنى كثيرة! الحمد لله ربّ العالمين.

لكن انظري مشاعرك تجاه المصحف؟ مشاعر مؤلمة! فالمشكلة أنّ التّوفّر يقلّل من قيمة الأشياء! الله يعيننا ويغفر لنا، نسأل الله -عزّ وجلّ- في هذا المجلس وفي كلّ مجالس العلم، وفي كلّ الأماكن الّتي تُرفع راية الكتاب والسّنّة فيها، نسأله -سبحانه وتعالى- أن يحفظها جميعًا، ويزيدها ويبارك فيها، ويبارك في أهلها، ويجعلها درعًا وحصنًا يدفع عن الأمّة الفتن، ويكون سببًا لبقاء ووراثة هذا العلم.

ونحن دائمًا نذكّر أنفسنا بالهند قبل مائة عام أو أكثر قليلًا، تلك البلد أو تلك شبه القارّة، كان التّوحيد والحديث منارة فيها، كانت ديار أهل الحديث، كانت المطبعة الهنديّة أوّل المطابع الّتي طبعت الحديث النّبويّ بالطّريقة الحديثة، وحتّى أنّ كتاب **"كنز العمَّال"** وهو كنز اسم على مسمّى، كتاب ضخم من كتب الحديث، صاحبه (المتّقي الهنديّ) يعني صاحبه هنديّ!

ثمّ تلك الدّيار تتحوّل تحوّلًا تامًّا، فبعد مائة عام تصبح دارًا فيها أكثر من ثلاثمائة وخمسة وستّين دينًا، وهذا التّرَحُّل ما هو إلّا بسبب عدم وراثة العلم.

العلم ميراث الأنبياء، إذَا انقطع الإرث أتى الّذين من بعدهم فقراء! فلابدّ أن نشعر بمعنى ميراث العلم، ولابدّ أن يكون منّا صدق في توريث هذا العلم لمن ورائنا.

ولا تغترّي أبدًا بكثرة الأدوات النّاقلة للعلم اليوم، لا تقولي: (أنا بضغطة زرّ أجد كذا وكذا) فإنّ هذا سيكون من الاغترار! وأنا سأعيد

عليكم: الهند هذه كانت ديار الحديث، كانت تطبع مطابعها كتب الحديث، وأوّل من طبع طباعة حديثة كانت الهند، ثمّ دار الزّمان وعاد بهذه الصّورة!

ومن أجل أن تتأكّدوا أنّه لا يكفينا أن تكون الأجهزة تحمل هذا! أنا أقول لكم الآن أنتم أجهزتكم غالبًا فيها تذكير بأذكار الصّباح والمساء، صحيح؟ يأتي التّذكير بأذكار الصّباح والمساء ولا أحد يدري عنه!

ولمّا كنَّا في عشر ذي الحجّة -العشر المباركة الماضية- كان كلّ شيء يُكبّر حولنا، أجهزتنا، كلّ شيء كان يُكبّر والنّاس ما كانوا يُكبّرون!

فلا تظنّ بأنّ حفظ العلم في الأوراق، أو حفظه في الأسطوانات، أو حفظه في كذا، بأنّ هذا سيحفظه! ليس صحيحًا لابدّ أن نعرف هذا الشّيء!

لابدّ أن تكون أحد نيّاتنا ونحن مقبلون على هذا المجلس، وغيره من مجالس العلم -الله يكثّرها ويبارك فيها ويبارك في أهلها- أن نحفظ العلم وَنَرِثُهُ من أجل أن نُوَرِّثَهُ لغيرنا.

ولذا فيما اشتهر عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنّه بعد موت النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- أتى لأهل السّوق وقال لهم: (ما بالكم هنا وميراث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يُقسم في المسجد؟) فترك أهل السّوق تجارتهم وأقبلوا على المسجد، ثمّ عادوا إلى أبي هريرة يلومونه، أنّه ما

وجدنا إلّا من يقرأ القرآن ويسمع الحديث، قال: "فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(١)

فالمقصد: أنّ علينا الحرص على هذه النّيّة مع كثرة الدّعاء، أسأل الله -عزّ وجلّ- أن ينظر إلينا فيرحمنا ويرحم ذرّيّتنا، وينقل العلم لنا، وينقله منّا إليهم، وينقلوه هم إلى من ورائهم، فيُحفظ هذا العلم، اللّهمّ آمين.

على كلّ حال الدّين ليس بحاجة لأيّ أحد يحفظه، الشّرف لمن اصطفاه الله فجعله سببًا لحفظ الدّين.

والله -عزّ وجلّ- في كتابه كما في سورة محمّد قد أخبر مؤكّدًا أنّ من تولّى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾(٢) يستبدل غيره! من قال لك إنّ الدّين من حقّك؟! إن لم تكن فإنّه يأتي بقوم خيرًا منك ولا يكون مثلك!

لا زلنا نستغفر ربّنا ونتوب إليه، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يغفر لنا، وأن يحفظ علينا العلم، فإنّ هذا لابدّ من تكراره وتكراره، وبقاء الشّعور بأنّ هذه نعمة وسبب لحفظ الله -عزّ وجلّ- للنّاس من الفتن، الله يحفظنا جميعًا وذرّيتنا من الفتن، اللّهمّ آمين.

---

(١) المعجم الأوسط للطّبراني (١٤٨٣) متن الحديث: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- يُقْسَمُ، وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ ؟ قَالَ: فِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجُوا سِرَاعًا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا ، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقْسَمُ . فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَمَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا؟ قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَيْحَكُمْ، فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

(٢) محمد: ٣٨.

استفتاح الكلام عن الكبائر بمدارسة الآية (٣٢) من سورة النّجم

إن شاء الله في خلال لقاءاتنا القادمة ستكون دراستنا لمسألة مهمّة جدًّا وخطيرة في هذا الوقت خاصّةً، وهي: مسألة الكبائر.

وسنقرأ أحد الرّسائل الّتي كُتبت في موضوع الكبائر، لكنّنا سنستفتح الكلام عن الكبائر بآية سورة النّجم، نتناقش فيها ونفهمها، ونعرف: لماذا هذا الموضوع بالذّات موضوع مهمّ خصوصًا حين تهجم الفتن؟

بسم الله، سنبدأ من الآية الّتي هي منطلق النّقاش، ثمّ ننظر إلى ما قبلها، وما قبلها، لنرى صلتها، ومن ثمّ نفهم السّبب، أي أن فهمنا للآية الآن سيكون جوابًا على سؤال: ما السّبب لدراسة الكبائر والاهتمام بها عمومًا؟ وفي هذا الوقت خصوصًا؟

الآية الّتي هي موضوع البحث هي: الآية (٣٢) في سورة النّجم، ماذا يقول الله -عزّ وجلّ- فيها؟

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

ابتدأت الآية بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ فالاسم الموصول أكيد أنّه يعرّفني بأحد، مثلما تقولين: (المفلحون هم الّذين يفعلون كذا وكذا.. الصّادقون هم الّذين يقولون كذا وكذا..) فلا يأتي الاسم الموصول إلّا ويعرّفك بشيء.

فإذًا معنى ذلك أننا سنرجع إلى الآية السّابقة، لكن دعونا نرى نفس هذه الآية:

﴿الَّذِينَ﴾ ماذا يفعلون؟ ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ يجتنبون ماذا؟ ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾

فجاءني الشّاهد المهمّ أنّ هناك: ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ثمّ: ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ وأتى الاستثناء: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

من الآية فهمت أنّ هناك: ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ وفهمت أنّ هناك: ﴿اللَّمَمَ﴾ الّذي يقابلها.

فإذًا هذا تعريف بمَن؟ انظري إلى الآية الّتي قبلها، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾

﴿لِيَجْزِيَ﴾ فعل الله، مَن؟ ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾.

فإذًا هذا القِسْم الأوّل: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾.

والقِسْم الثّاني: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ يجزيهم ﴿بِالْحُسْنَى﴾.

من هم ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؟ هم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ فإذًا هذا تعريف لمن؟ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

فإذًا صار مقصدنا: أنّ الّذي يريد أن يكون من ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أو الّذي يريد أن يجازيه الله ﴿بِالْحُسْنَى﴾ ماذا يفعل؟ يجتنب الكبائر.

فهذا مطمع لأيّ عاقل، أيّ عاقل يريد أن ينتفع من حياته فَلِيَرَى في كتاب الله، فينظر إلى وعود الله، ويتابعها وينتفع بها.

مَن الّذين وعدهم؟ وبماذا وعدهم؟ وهذا جزء من إيماننا باسم الله المؤمن.

فإذًا أين وعد الله هنا؟ ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ لابدّ أن يتابع وعود الله، ويعرف من هم أهلها؟

ما هو الوعد هنا؟ أن ﴿يَجْزِيَ﴾ ﴿بِالْحُسْنَى﴾ وعد لمن؟ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

فأنت لابدّ أن تعرفي ما هو الوعد؟ ومن هم أهل الوعد؟ من ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وسوف يجازون ﴿بِالْحُسْنَى﴾؟ ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾.

وهذا جزء من إيماننا، يعني هذا ليس تبرّعًا منك الآن، أنّك تذهبِين وتبحثِين عن وعود الله، وتعرفِين الوعد، وتعرفِين مَن أهله، وإنّما هذا جزء من إيماننا باسم الله المؤمن. فأنتِ مطلوب منك ٩٩ اسمًا أن تُحصِيها فتعرفِيها من كتاب الله، وتعرفِين معانيها، وتعرفِين كيف

تعبدِين الله بها؟ فحين تفعلِين هذا فإنّك لا تتبرّعين وإنّما أنت تسلكين الصّراط المستقيم، يعني هذا ليس من باب الزيادة!

وهذا سبب للثّبات، كونك تهتمّين بأسماء الله يوصلك للثّبات حين يأتي السّؤال: من ربّك؟ أليس آخر الاختبار الّذي نعيش فيه ثلاثة أسئلة فقط؟

- من ربّك؟
- ما دينك؟
- مَن نبيّك؟

فالإنسان العاقل يعيش طوال الحياة وهو يدرس: "من ربّك؟" "من نبيّك؟" ، "ما دينك؟" من أجل أن يجيب حين يأتي الاختبار النّهائي.

ولذلك في الحديث الصّحيح في البخاري أنّ الرّجل الموفّق -نسأل الله -عزّ وجلّ- أن نكون كلّنا وأبنائنا ذاك الرّجل الموفّق- حين يُسأل الثّلاثة أسئلة: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ ويجيب يأتيه سؤال رابع: ما صنعت؟ يعني ماذا صنعت في حياتك من أجل أن تصل إلى الإجابات النّموذجيّة هذه؟ فيقول: «قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ»[1]

(١) أخرجه أبو داوود في سننه (٤١٩٠).

صفات ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾

كيف تطبّق عمليًّا: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت؟

دعونا نطبّق الآن على الآية الّتي نقرؤها هذا الموقف، الآن أنتِ تقرئين سورة النّجم، وتصلِين إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ماذا تعتقدين في نفسك؟ تعتقدِين في نفسك أنّ الله هو المؤمن.

ما معنى المؤمن؟ معناه: أنّه -سبحانه وتعالى- يُوفِي بوعده، كلّ وعد له في كتابه يُوفِي به لمن وعده، فهو -سبحانه وتعالى- مصدّقٌ لوعده، **مؤمن، يعني مصدّق.**

ولذلك إخوة يوسف ماذا يقولون؟ ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[1] يعني وما أنت بمصدّقٍ لنا.

فمن معاني اسم الله المؤمن: أنّه -سبحانه وتعالى- مصدّقٌ لوعده.

- ما هو الوعد هنا؟ ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ فأوّل الأمر أنتِ تعتقدِين أنّ الله مؤمن يصدّق وعده.
- الوعد هنا لمن؟ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾
- ما هو الموعود؟ ﴿الْحُسْنَى﴾.

فإذًا هذه ثلاث كلمات.

---

(١) يوسف: ١٧.

سنقول الآن: كيف قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت؟

أنت تعرفين في كتاب الله في آية الحشر أنّ من أسماء الله: **المؤمن**، إذًا كلّما وجدتِ وعدًا في كتاب الله لابدّ مباشرة أن يظهر أمام عينيك اسم الله **المؤمن**.

فإذًا كيف سأفهم المسألة؟

سأبتدئ أقول: ما هو الوعد هنا الّذي أنا متيقّنة به؟ أنّه سيجزي بالحسنى.

يعني

الجملة الأولى: ما هو الوعد؟ سيجزي بالحسنى.

الجملة الثّانية: مَن أهل هذا الوعد؟ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

الجملة الثّالثة: ما صفات الموعودين؟ ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾.

فتخرجِي من الآية تقولي: أنا مؤمنة مصدّقة أنّ الله مؤمن، وأنّه سيجزي الّذين أحسنوا بالحسنى، والّذين أحسنوا هم الّذين يفعلون كذا، وكذا، وكذا...

بعد هذا الاعتقاد أكيد أنّك وأنت متأكدة ومتيقّنة أنّ ربّنا سيجزيهم بالحسنى، أكيد أنّك لن تطلبي إلّا الحسنى، فماذا ستفعلين؟ ستحسنين.

هل هناك خطّة حتّى تكوني ممّن أحسن؟ نعم، قال الله: الّذين يفعلون كذا وكذا.

فهذا معنى آمنت: «قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ»

«فَآمَنْتُ بِهِ» يعني أصبح قلبي مليئًا بهذه الحقيقة ليس عندي أيّ شكّ.

«وَصَدَّقْتُ»: الصّدق من القوّة.

ولذلك قال تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾[1]، رَجُلُ صِدْقٍ، يعني رجل قوّة.

«وَصَدَّقْتُ» ما هو معناها؟ المسألة ليست ببساطة! وفي وقت الفراغ! لا! وإنّما معناها: آمنت ما عندي في قلبي شك، ثمّ صدّقت هذا الإيمان بالعمل القويّ الصّادق، فأصبحت هذه غاية لي.

وانظري اليوم، حين يتكلم الناس عن غاياتهم وآمالهم، ألا ترجع المسألة وتعود على حسب ما في قلوبهم من إيمان؟! بلى.

ما معنى (آمنت)؟

آمنت يعني فهمت هذه المسألة واستقرّت في قلبي يقينًا لا شكّ فيه:

لا تنسي الكلمتين الّلتين قالهما الرّجل الموفّق: «قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ».

وها نحن الآن قرأنا سويًا كتاب الله، ألم نقرأ سويًّا هذه الآية؟

---

(١) يونس: ٢.

فإذًا ما معنى آمنت؟ يعني فهمت هذه المسألة، واستقرّت في قلبي يقينًا لا شكّ فيه.

ما هو الّذي لا شكّ فيه الآن؟ أنّ الله سيجازي ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ومن هم ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؟ الّذين يفعلون، ويفعلون، ويفعلون..

ما معنى (صدّقت)؟

صدّقت يعني أنّه سيأتي فعلي على هذا اليقين قويًّا فتصدّق أفعالي أقوالي:

الآن صدّقي! جاء التّصديق:

أصل الكلمة في اللّغة "التّصديق" ما معناها؟ القوّة، فمعنى ذلك: أنّه سيأتي فعلك على هذا اليقين قويًّا، يعني ستصدّق قولك بفعلك.

الآن الّذي سيصدّق قوله بفعله ماذا يفعل؟ يذهب إلى ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ ويرى صفاتهم ويتمسّك بها، يفهمها، ويعرفها بالتّفاصيل، ويبذل الجهد في معرفة تفاصيل التّفاصيل حولها، وبعد ذلك يسير في هذا الطّريق.

لأنّه لو أتيتي الآن تقولين لنفسك: ما هي الكبائر؟

لأنّ هذه آية واضحة: أنّهم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾، من أجل أن يجدوا الحسنى، الحسنى الّتي هي الجنّة عليهم أن يحسنوا، وهؤلاء ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ حالهم أنّهم ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾.

جرّبي أنتِ أن تكتبي لنفسك ما هي الكبائر الّتي تعرفينها؟

وحين تجدِين نفسك تعرفين اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة، بالكثير سبعة، وبعد ذلك نأتي نقارن معرفتنا بما سنجده في الرّسالة، معناه: أنّه لا يوجد **"صدّقت"** وليس هناك قوّة في المعرفة! وإذَا كنت تريدين **"الحسنى"** ابحثي في كتاب الله ما هي صفات الّذين وصلوا للحسنى؟ والّذين وعدوا بالحسنى؟

"الحسنى" نحن اتّفقنا ما الّذي تتطلّبه منّا، وهي أنّك أصلًا تكون مؤمنًا، تكون مهتمًّا، تكون الحسنى أصلًا على بالك طوال الوقت.

صفات ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾

ما هي صفة النوع الثّاني العكسي: ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾؟ سنرى الآيات السّابقة فنصل إلى أن نرى حال ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ دعونا نبدأ من الآية (٢٩) والآية (٣٠):

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾

هل ترون الطريقة الّتي نمشي بها؟ فقد أخذنا الآية المركزيّة بالنّسبة لنا، وبدأنا نرى الصّلات بما قبلها لأجل أن تجيب على أسئلتنا.

إذًا نريد معرفة مَن الآن؟ ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ يعني الآية أتت قسمت النّاس: ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ و ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أتى بيانهم قبل، وَ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أتى بيانهم بعد.

فإذًا من الآية ما صفة الّذين أساؤوا؟

١. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾

٢. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

٣. أيضًا زيدي في معرفة صفته ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾

إذًا معنى ذلك أنّ صفاته واضحة جدًا.

أولًا: ﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ وإذا لم يذكر ربّ العالمين سيذكر مَن؟ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فإذًا هذه الصّفة الرّئيسيّة.

قبل أن نتناقش في: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لابدّ أن نبيّن معنى هذا الاستثناء، يعني قبل أن ندخل في التّفاصيل لابدّ أن نتّفق بأنّه لا يمكن للإنسان أن يكون في الدّنيا ولا يعيشها! والآية لم تقل: (لم يعش الحياة الدّنيا!) لأنّ أيّ تلفيقة يأتي بها الشّيطان فإنّ الجواب في الآية مباشرة، وأيّ نقاشات عن الاهتمامات لا تنقلِها فتشعرين أنّه: (لا!

أنتم تعقّدون الحياة علينا، وهل معناها أنّنا لا نعيش الدّنيا! واتركنا نعيش..) لأنّه دائمًا يأتي هذا الكلام من كلام الشّيطان، وحين تقلّ خبرة الإنسان ويكون صغيرًا في السّنّ لم يجرّب بعد الحياة، فإنّ هذا الكلام دائمًا يتكابل عليه أنّه: (لا! نحن نريد أن نعيش) وكأنّه يُقال له: (لا تعش!) من قال لك: (لا تعش)؟ بالعكس عش، فنحن نقول: عش عيشة لا تصير فيها أنت عبدًا للدّنيا، وإنّما عش عيشة تصبح فيها أنت سيّد الدّنيا!

دعونا نضرب هذا المثال قبل أن ندخل في التّفاصيل:

تصوّري حين تكونِين تسكنِين عند أحد، أو أحد يطعمك، وكلّما غضب عليكِ يقول لك: (هيّا اخرجِي من منزلي)! وكلّما غضب عليكِ أخذ منك الأكل وقال لك: (لن أطعمك)!

ماذا تتمنّين؟ تتمنّين أنّك تتحرّري منه ولا تكونِين رهينته؟ وليس يوم ما يرضى يعطيك، ويوم ما يسخط يمنعك...تريدِين أن تكونِي أنتِ أعزّ منه ولا تكونِي تحته.

هيا انظري بنفس التّفكير، انظري موقفك مع الدّنيا، والدّينار، والدّرهم...حينما يأتي تصيرين أنتِ عزيزة وعالية، ويوم يكون ليس موجودًا تصبحِين ذليلة ومنزعجة، الّذي يصير فوقه ليس مثل الّذي يصير تحته! وفي النّهاية لماذا لابدّ أن تذهبي مع هذه من أجل أن تطعمك وتسقيك؟

سأتخيّل أنّه هذه هي الدّنيا الآن، لابدّ أن أذهب مع صديقتي هذه من أجل أن تطعمني وتسقيني، وأتحمّل سخافتها، وكلامها الكثير من أجل أن تطعمني!

لكن ماذا يوجد من مشاعر بداخلك؟ أن يا رب خلّصنا منها! لكنّك كلّما جعتِ ذهبتِ ذَلَلْتِ نفسك لها!

طيّب اليوم الّذي تكونين صائمة فيه؟ ماذا يحصل؟ ستستغنين عنها! تقولين: (الحمد الله اليوم صائمة، لا أريدك ولا أتحمّلك).

انظري حين تصومين سوف تصبحين فوقها لا تحتاجين إليها!

فانظري وتمعّني هذا المثال في عقلك وافهميه! فإنّه لا يُقصد أنّك لا تعيشين في الدّنيا، وإنّما يُقصد أنّك أنت لا تكونين تحتها رهينتها، ومن أجل أن تحصّلي الدّنيا لابدّ أن تتحمّلي هذا، وتتحمّلي هذا، والّذي له قيمة والّذي ليس له قيمة، والّذي عنده كلام والّذي ليس عنده كلام، تتحمّلينه من أجل أن تأخذي شيئًا من الدّنيا!

لا! وإنّما أنت فوقه! فوق هذا بحيث أنّك لو جعت تجوع ولا تتحمّل هذا الّذي يُهينك، والّذي يُذلّك، والّذي كذا وكذا...

تتصوّره! هكذا تصوّر الدّنيا بالكامل؛ لأنك بذلك تكون فوقها وليس تحتها!

ولذلك قال رسول الله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»[1] لأنّ الدّينار سيتذلّل لهؤلاء النّاس الّذين يهينونه ويحتقرونه، (لا! أنا سأعمل وسأفعل) لا بأس فأنت لن تصبح رهينًا لشخص وإنّما ستكون رهينًا لمؤسّسة! وإن لم تصبح رهينًا لمؤسسة ستكون رهينًا لشركة، ليس لشركة...إلى أن تصبح رهينًا للدّنيا! فهي نفس السّلسلة!

لكن حين تأتي بحاجاتك على الحدّ ولا تجعل شيئًا يذلّك، هكذا أنت تعيش أحسن حياة.

فإنّ الّذي يقول لك: (المطلوب منك ألّا تعيش الدّنيا)! هذا مخطئ!

وإنّما المطلوب منك أن تعيش الدّنيا لكن تعيشها وأنت أعلى منها، وليست هي الّتي تتحكّم فيك وإنّما أنت الّذي تتحكّم فيها.

ومن أجل أن ترتاح من هذا الّذي يزعجك فإنّ كلّ المطلوب منك أنّك لا تخرج معه!

الآن أنت تتمنّي أنّك تتمشّين أو تخرجين، ومن أجل أن تفعلي هذا لابدّ أن تخرجِي مع مَن لا يُطاق! فكلّ المطلوب منك أن تستغني عن هذه الحاجة من أجل أن تصبحِي أنت سيّدة الموقف! فقط هذا هو المطلوب منك.

وهكذا فكّري من أجل أن تعرفي ما هو المطلوب؟ لذلك فإنّ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[2] القويّ في ماذا؟ في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩٤٥).

إيمانه، في تحكّمه في شهوته، في قرارته، لا يُهين نفسه الكريمة، نفسه كريمة عليه لا يهينها.

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» يعني ضعيف الإيمان، ومن ثمّ ضعيف في إكرام نفسه، ومن ثمّ فإنّ همّه طوال الوقت أن يحصّل الدّنيا أيًّا كان الوضع! حتّى لو أهانوه فلا يهمّه! فأهمّ شيء لديه هو أن يُحصّل الدّنيا!

طبعًا أنتِ لكِ أن تتخيّلي كيف هي المستويات في هذه الإهانة؟ والإهانة ليس شرطًا أن تأتي مباشرة! ولا بكلمة مباشرة!

على كلّ حال، أنت فكّري في المثل جيّدًا ووسّعيه، ستفهمين الموضوع أكثر، لكن المهمّ نحن متّفقون بأنّ الآية ليس فيها خبر بأنّك لن تعيش الدّنيا وإنّما فيها خبر عن من ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ ثمّ بعد ذلك هناك كلمة مهمّة أيضًا: الاستثناء، يعني ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ هذا الاستثناء ما معناه؟ معناه: ليس له إرادة ولا يُفكّر أبدًا في أيّ شيء إلّا الدّنيا! هذا الاستثناء معناه: الحصر، يعني غاية آماله وهمومه وطموحه هنا فقط! ولا يخبّئ شيئًا لهناك! وهذه هي أصل قضيّة الضّعف الّتي نعيشها!

أصل قضيّة الضّعف الّتي نعيشها: أنّه وقت ما أتّخذ أيّ قرار صغير كان أم كبيرًا فإنّي لا أكون مشغولًا إلّا بهنا! هنا المحسوس! ولا أكون مشغولًا بهناك الّذي لابدّ بأن أذهب إليه.

فضعف الإيمان يجعل الإنسان لا يفكّر ولا يتّخذ قرارًا ولا تكون له إرادة إلّا للحياة الدّنيا!

ولذلك هذا المثل الّذي دائمًا يجري على الألسنة، والنّاس ما يشعرون إلّا أنّه مُزاحًا! لكنّه يصوّر لك المسألة: حين يأتي أحد يخطئ مع أحد ويقول له: (آسف) فالثّاني يقول له: (أين أصرفها؟) على أساس أنّ الدّنيا هذه عبارة عن خُذ وهات! على أساس أنّه مادة! لكن لا يوجد شيء سوى المادة! ولذلك إذَا أنا عندي مشروع معك أو أنت صديقي في الدّراسة أو صديقتي في الجامعة، فإنّك ما دمتِ صديقتي في المادّة سأبتسم لكِ، وأسلّم عليك، وأوّل ما تنتهي المسألة؟ حتّى «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»[1] لا علاقة له لا «صَدَقَةٌ»! ولا غيره!

فكلّ القضيّة هنا! هنا! يعني كأنّ النّاس يعيشون في صراع دائم، صراع دائم يثبتون أنفسهم هنا...يعني لا يفكّرون: أنت مَن عند ربّ العالمين؟ أنت في الأرض لكن أنت من عند ربّ العالمين؟ الآن قبل الآخرة أنت الآن مَنْ عند ربّ العالمين؟

ولذلك قد ورد فيما حُكي عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه الكرام، أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- خرج ذات يوم إلى السّوق فوجد أعرابيًّا، وكان النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يحبّ هذا الأعرابيّ، وقد كان الأعرابيّ هذا يتردّد على النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فيأتي له من دياره بسمن يهديه للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وكان له صفة أنّه

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٢٣).

دميم الخلقة، فحين نزل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- السّوق، وجد هذا الأعرابيّ وعرفه من قفاه، فأتى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- إلى هذا الأعرابيّ من قفاه وحضنه «فَجَعَلَ النَّبِيُّ -صلّى الله عليه وسلّم- يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ» فعرف الأعرابي أنّه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يمازحه «فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا» كاسدًا ليس لي سوق «فَقَالَ النَّبِيُّ -صلّى الله عليه وسلّم-: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ أَوْ قَالَ : أَنتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ»[1]

فأيّ شهادة هذه؟! يعني هو في الأرض وأُخبر أنّه في السّماء غالٍ! وهو في نظره وفي نظر النّاس كاسد!

لكن هذا كلّه يقول لك: لابدّ أن تسأل ما هو ميزانك أنت عند ربّ العالمين؟ مَن تكون؟

وهذا سيرجع بنا مرّة أخرى: أن تعيش الدّنيا عيشة مَن يريد أن يكون له مكانة عالية عند ربّ العالمين، لا يمكن ألّا تعيش الدّنيا لا يمكن! فلابدّ أن تعيش الدّنيا لكن تعيش وخطّة العيش أن يكون لك مكانة، لكن ليس هنا! ليس عند هؤلاء الّذين يتقلّبون في أمزجتهم! ليس عند هؤلاء الّذين لا يعلمون عنك إلّا الظّاهر الّذي ممكن أن تكذبي عليهم فيه! أو لا يحفظون عنك إلّا لحظة السّقطة والخطأ! ولو اعتذرت أو فعلت لا يقبل أحد! وهذه هي الطّبيعة الإنسانيّة فلا أحد يُلام عليها، لكن يُلام الّذي يجعل قبلة قلبه وحاكمًا على حياته مثل هؤلاء!

---

(١) أخرجه الترمذي في الشّمائل المحمّديّة (٢٣٧).

فإذًا انظروا جيّدًا: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ ليس مهتمّا! فلا يهمّه لا أن يَذكر ربّه ولا يهمّه أن يُذكر عند ربّه!

﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ في المقابل ماذا يريد؟ يعني لم يهمّه هو مَن عند ربّ العالمين؟ ليس همّه أن يكون في الأرض ويُذكر في السّماء بالثّناء، فإذًا ما هو همّه؟ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وهنا سنؤكّد على المعنى لأنّ الشّبهة دائمًا تأتي هنا:

فإنّ المعنى واضح: هذا عاش الدّنيا وهو لم يُرد إلّا الدّنيا، والصّحيح أنّ الإنسان يعيش قاعة الاختبار من أجل أن يخرج منها ناجحًا، فالدّنيا ما هي إلّا قاعة اختبار كبيرة، وكلّ قضاء وقدر إنّما هو عبارة عن ورقة اختبار، لكي تخرج في النهاية تجيب على الثّلاثة الأسئلة: (من ربّك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟) وتنجح وتُؤنس في قبرك، وتتلقّاك الملائكة، ولا يحزنك الفزع الأكبر، وحين تلقى ربّك تلقاه وهو راضٍ عنك؛ ورضا ربّ العالمين عنك هذا هو غاية الأماني، ولذلك فإنّ النّفس المطمئنّة يُقال لها: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1].

فالمقصد الآن: أنّ ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ الّذين سيجزيهم الله -عزّ وجلّ- أسوأ ما عملوا، أصل صفتهم ماذا؟

أعرضوا عن ذكر الله.

ولم يريدوا إلّا الحياة الدّنيا.

---

(١) الفجر: ٢٨.

وهذه الصّفة كلّ مرّة نتكلّم فيها عن الكبائر واجتنابها سنذكّر أنفسنا بأنّها هي السّبب.

أنت الآن ألست عندك طرفان؟

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾

ماذا يقول الله عزّ وجلّ؟ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني الملك ملكه، وهو -سبحانه وتعالى- سيحكم بين عباده، بعدما أعطاهم كلّ الفرص وكلّ الأدوات للصّلاح والإصلاح.

ولذلك في سورة الإنسان حين أخبر -سبحانه وتعالى- عن خلقة الإنسان، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]

جعله ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

وأخبر -سبحانه وتعالى- أنّه هداه ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾.

وأخبر -سبحانه وتعالى- أنّ هناك طريقين: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

فإنّ كلّ هذا الّذي عندك بعده سيأتي حكم الله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذه الآية (٣١).

---

(١) الإنسان: ٢_٣.

مالك السّماوات والأرض سيحكم بين الخلق، سيجزي ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾.

هم ﴿الَّذِينَ﴾ ﴿عَمِلُوا﴾، هم ﴿الَّذِينَ﴾ اختاروا، هم ﴿الَّذِينَ﴾ كان عندهم قدرة على التّمييز، وكلّ هذا متّصل بالفطرة السّويّة.

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ عكس ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾

- ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ لهم صفة عظيمة: أنّهم اجتنبوا ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.
- وَ ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ لهم صفة خطيرة: وهي أعرضوا عن ذكر الله، ولم يريدوا إلا الحياة الدّنيا.

فإذًا الآن أصبح عندي فريقان متقابلان، الصّلة بينهم متضادّة، يعني الّذي فيه هذه الصّفة سيصبح ليس فيه هذه الصّفة وبالعكس.

لكن لابدّ أن نعرف أنّ الإنسان إذا أراد الحياة الدّنيا وكان هذا هو نهاية مقصده فإنّه لابدّ أن يقع في الكبائر! والعكس بالعكس، إذا لم يقع في الكبائر معناه أنّ الدّنيا ليست غاية مقصده.

إذًا عندنا ﴿أَسَاءُوا﴾ وَ ﴿أَحْسَنُوا﴾، وعندنا صفة للّذين أساؤوا، وصفة للّذين أحسنوا.

سبب صفة ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أنّهم لم يكونوا موصوفين بصفة ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾.

بمعنى: كيف اجتنبوا ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾؟ ما الّذي جعلهم يستطيعون أن يجتنبوا الكبائر؟ أنّه لم تكن غايتهم الحياة الدّنيا، هذا هو السّبب. فأنت الآن كلّ الّذي ترينه من مظاهر لزلّة القدم إنّما سببها: تغذية حبّ الدنيا بحيث يصبح نهاية مقصد الإنسان هذه الدّنيا!

الصّنفان المتقابلان وموقفهما من الكبائر

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾

أنت الآن في الآية (٢٩) الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فإذًا عرفتِ أنّه هذه صفة ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾.

الآن هناك إشارة إليهم زادت المعنى بيانًا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ يعني لا تظنّي بأنّهم جاهلون! ولا تظنّي بأنّهم لا يملكون اختراعات! ولا عندهم فهم! لا تظنّي أنّهم هكذا! فإنّ هؤلاء عندهم علم من علوم الدّنيا ويعرفونها بالتّفصيل! بالتّفصيل! لكن ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾! فهذا أقصى شيئًا عندهم، وحين يريدون أن يفسّروا الواقع عليهم، أو الأشياء الّتي حولهم فإنّهم يخرجون لك بفلسفات! وهذا الّذي سوف نُطيل النّقاش فيه، يعني نحن في كلّ مرّة حين نتكلّم عن كبيرة لابدّ أن نذكّر أنفسنا بهذا الكلام؛ لأنك حين تريدين علاج أيّ كبيرة، والنّاس كلّهم مُعرّضين للكبائر، عالجي جذرها!

جذر الوقوع في الكبائر: أنّ الإنسان طمعان فقط في الدّنيا، ما عنده إلّا الدّنيا، فمن ثمّ كلّ القضية اللّذّة!

ومن أجل أن تتصوّري هذا المعنى دعونا نرى كيف تحصل هذه المتتالية دائمًا؟ كيف أنّ الأمور لا تقف عند حدّ معين حين يكون الإنسان يريد اللّذّة! إلّا وينتقل من سيّء لأسوء.

وهذا تجدينه حين تعرفِين بأنّ هناك أناسًا كثيرة حولنا في العالم الزّنا مباح عندهم -الله يحفظنا ويحفظ أعراضنا جميعًا- ورغم أنّ الزّنا مباح ومع ذلك فإنّ حالات الاغتصاب كثيرة! ما هو التّعليل؟ ما الحاجة إلى الاغتصاب؟

هذا الكلام كلّه سوف نتناقش فيه، حين يأتي وقته، لكن أنا أقصد فقط من أجل أن تفكّري في المتتالية الّتي لا تنتهي هذه.

الآن الزّنا موجود! والاغتصاب أيضًا موجود! لكن ما انتهينا! انتقلنا أيضًا من هذه الأشياء إلى الشّذوذ! إلى عمل قوم لوط!

طيّب ما الّذي نقلكم إلى هذا؟ إنها المتتالية.

يعني أنت تصوّري: الأكل، الآن أنت تأكلين أكلًا اشتهيته وتوفّر لك، مع كثرة توفّره لم يعد مصدرًا للّذّة، فتأتي بالّذي أكثر منه، ثمّ بعد ذلك لم يعد مصدرًا للّذّة! فتأتي بالّذي أعلى منه، والّذي أعلى منه! والّذي أعلى منه! إلى أن يفقد الشّيء لذّته!

لذلك -والعياذ بالله- يفقدون عقولهم بالخمر وما يكفيهم! مخدّرات وما يكفيهم! وأعلى! وأعلى...فكلّ هذا لأنّ هذه المتتالية يجرّ بعضها بعضًا!

ومن أجل ذلك حين يأتون يشعرونكِ بأنّكم: (أنتم لا تجعلوننا نعيش)! هكذا يأتون يقولون حين يريدون شيئًا ممّا تزلّ به القدم وهم لا يفهمون أنّه بالعكس، أنت لو دخلت في هذا فهي متتالية لا يمكن أن تقف! إلّا حين تؤدّي بك إلى الموت والهلاك، إلّا حين يأتيهم أمراضًا تقطع عليهم هذا، أو مخدّرات تميتهم، أو يسقط سوق المال، أو...بهذه الطريقة.

فإذَا تصورتِ أنّ النّفعيّة واللّذّة ستقف عند باب! تكونِي مخطئة! فالنّفعيّة واللّذّة لا تقف عند باب أبدًا! وفي كلّ مرّة تتطوّر وتتطوّر ويصير هذه الإنسان لا يشبعه، والّذي بعده لا يشبعه، والّذي بعده...

فهذا معناه أنّ الّذي يريد أن يبعد عن نفسه هذا كلّه فإنّه يبدأ بالنّقطة الأساسيّة، وهي: أنّه يكون مشغولًا هو مَن عند ربّ العالمين، ويعيش مشغولًا بذلك، فيناجيه، وينادِيه.

الآية (٧) من سورة الرّوم تعرّفنا أنّ صنفًا من النّاس:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

ما هو الفرق بين الّذين عندهم علم يعلمون به ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والّذين عندهم علم يوصلهم إلى الآخرة؟

على حسب موقفك يكون العلم إمّا علمًا ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإمّا علمًا يوصلك إلى ربّ العالمين:

﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ ماذا؟ الحياة الدّنيا.

فانظري هذه الآية العظيمة الّتي تفهّمك المعنى، فتزيد آية سورة الرّوم الأمر بيانًا، يعني الله -عزّ وجلّ- أخبر في سورة الرّوم عن القوم الّذين مالهم علم إلّا الحياة الدّنيا.

دعونا نذهب إلى سورة الرّوم من أجل أن تتصوّروا المسألة، نريد فهم قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ ما هو ﴿مَبْلَغُهُم﴾؟ هذا إشارة إلى ماذا؟ إلى الحياة الدّنيا.

هذه آية النّجم العظيمة تزيد آية الرّوم بيانها، دعونا نذهب إلى آية الرّوم ونفهم معناها.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾[1]

(١) الرّوم: ٤_٨.

الآن في الآية (٦) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: وهنا إشارة إلى ما سبق، الّذي هو: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ﴾ ثمّ قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا وعد الله! ولا ما عند الله! ولا ما في الدّار الآخرة! لماذا؟ إذًا ماذا يعلمون؟ وماذا هم بصدد فعله؟ هم طبيعتهم أنّهم طالبون للعلم، وكلّ النّاس طبيعتهم أن يطلبوا العلم، كلّ النّاس، لكن العلوم الّتي يطلبونها متفاوتة.

الآن ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون وعد الله! ولا ما عند الله! فإذًا ماذا يعلمون؟ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إذًا يُحكم عليهم أنّهم عندهم علم!

ما معنى ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ الّتي في سورة النّجم؟ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لكن مع هذا الّذي يعرفونه ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ انظري فإنّهم ليسوا بغافلين دائمًا لكن ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ و ﴿هُمْ﴾ هنا لها دلالتها: الّتي هي البيان والحصريّة، وأنّه هذه هي صفتهم الأكيدة: أعطوا ظهرهم للآخرة واستقبلوا الدّنيا الّتي تجري وتتركهم! وعندهم علم، ويبتكرون، وكل فترة يزيدون أنفسهم رفاهيّة في الدّنيا!

يعني لا تظنّي أنّ هذا المشهد الّذي ترينه أمامك ما وُصف في كتاب الله؟ وإنّما وُصف بالتّفصيل: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

بكلمة مختصرة وبعد هذا -إن شاء الله- يأتي بيانها أكثر:

ما الّذي يُميّز الّذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدّنيا والنّاس الّذين عرفوا ما ورائهم؟ هي هذه الكلمة: انظري الآية الّتي بعدها مباشرةً ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ يتفكّرون في أنفسهم يصلون إلى ماذا؟ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني ماذا يرون؟ هل أنّ الدّنيا سوف تستمرّ بلا فناء؟ لا!

هم يرون أمامهم النّاس يموتون في أجل مسمّى! والأجل المسمّى سيكون للأشخاص، والأجل المسمّى سيكون للحياة؛ ولذلك أنت تسمعين اليوم وأمس وقبل أنّه يأتي يقول: (الموت سوف يكون مثل أيّ مرض وستتغلب البشريّة عليه!) هذه الفكرة هي نتيجة المتتالية الطبيعية!

شخص يرى نفسه أنّه يعرف! ويقدر! ويقدر! فالمتتالية الطبيعيّة سوف تأتي في النّهاية: أنّه حتّى الموت نحن نقدر عليه! وهذا ليس غريبًا فأنت تسمعين في حديث الدّجّال: أنّه حين يأتي يأجوج ومأجوج قرب السّاعة ويقتلون النّاس، وتجري الدّماء في الأرض، فمن زيادة البلاء وتمكينهم أنّهم يرمون حرابهم إلى السّماء يقولون: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ» الآن يريدون قتل مَن؟ «أَهْل السَّمَاءِ»

فتعود حرابهم «مُخَضَّبَةً دَمًا»[1] فيظنّوا أنّهم قتلوا أهل السّماء من زيادة البلاء!

فهذا هو المعنى الّذي لابدّ من فهمه ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ فكّر! انظر لمن حولك! لابدّ أن تعرف أنّ كلّ شيء هنا يدلّك على ما ورائه.

إذًا هكذا دعونا نجيب على السّؤال:

السّؤال يقول: ما الفرق بين الّذين عندهم علم يعلمون به ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والّذين عندهم علم يوصلهم إلى الآخرة؟ لأنّه إذَا كان في مجال الطبّ فهؤلاء مسلمون وهؤلاء كافرون يتعلّمون الطبّ، وإذَا كان في مجال الجيولوجيا فهؤلاء يعرفون وهؤلاء يعرفون، ففي كلّ المجالات ممكن للمسلمين أن يدخلوا.

هل سأعتبر هذه العلوم بنفسها هي علوم ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ لا! وإنّما لابدّ أن تفهم أنّه على حسب موقفك يكون العلم إمّا علمًا ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإمّا علمًا يوصلك إلى ربّ العالمين.

الفرق في كلمة واحدة: أنّ كلّ شيء محسوس تفكّر فيه يدلّك على الغيبيّ، إذَا فكرت هكذا فأنت لست من مَن ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهذا الضّابط مهمّ جدًّا، جدًّا! لكيلا تظنّي أنّ المشكلة في العلوم نفسها وإنّما المشكلة فيمن يتعامل مع العلوم!

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٥٦).

انظري كيف أنّه حين يأتي طبيب عيون، ثمّ بعد ذلك يكون مثلًا أجرى مائة عمليّة (عين زرقاء، وماء بيضاء...) من الأمراض المعروفة، ويأتي يقول لك: لابدّ أن تعرف أنّ الله -عزّ وجلّ- هو الخلّاق العليم؛ لأنه لا توجد عمليّتين تشبهان بعضهما البعض، لا في انتشار الدّاء، ولا في طريقة إخراجه، هذا كلامهم نحن لا نتفلسف عليهم، هذا كلامهم هم.

الآن نفس هذه العمليّة شيء يعتبر حسّي، لكنّه أفضى به إلى الغيبيّ.

فما كانت المسألة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ بالعكس أصبح هذا العلم يدلّه على الآخرة، يزيده يقينًا، يزيده ثباتًا.

حين يأتي مريض والنّاس كلّهم يقولون: (ميؤوس من حالته) ثم يصبح المريض وقد طبّبه الله!

شخص يقول: (أنت مثلًا خارج الحسابات! هذا شّاذّ!)

وآخر يقول: (هذه قدرة الله، الله على كلّ شيء قدير)

المرّة القادمة حين يأتي إليه مريض لن يقول له: (أنت ميؤوس منك!) وإنّما يقول له: (اسمع أنا وأنت مؤمنون، أنّ الله على كلّ شيء قدير، لكن نحن كبشر محدودين نقول كذا وكذا، لكن أنت عندك الثّلث الأخير من اللّيل، وعندك ماء زمزم، وعندك...أبوابًا كثيرة غير بابنا اذهب لها)

فهذا يعلم ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فهناك أدلّة كثيرة تدلّه.

لكيلا يختلط عليكم الأمر فنحن موضوعنا في النّجم وقد ذهبنا إلى سورة الرّوم، لكن هذه مشكلة المشاكل! وسنبقى في كلّ مرة نذكّر بها أنفسنا بأنّ هؤلاء لا يريدون إلّا الحياة الدّنيا! هنا المشكلة! هنا الخصومة!

فالخصومة ليست في طريقة العيش، ولا في السّكن الّذي تسكنه، ولا في الأكل الّذي تأكله ما دام أنّه حلال، وإنّما الخصومة الّذي في قلبك:

⇐ هل أنت لا يهمّك إلّا الحياة الدّنيا أم هناك شغل في قلبك في الآخرة؟

⇐ وكلّما زاد الشّغل بالآخرة وبمكانك عند ربّ العالمين، اقتربت من المؤمن القويّ، وكلّما ضعف هذا اقتربت من المؤمن الضّعيف وهكذا..

⇐ فصار مدار المسألة إلى أيّ حدّ تشغلك الدّنيا؟

⇐ إلى أيّ حدّ يهمّ عندك ثناء النّاس عليك؟

⇐ وأن يكون لك مكانة عند النّاس!

⇐ ومن ثمّ كلّ السّلوكيّات الّتي تتصوّرينها الصّحيحة أو الخاطئة: فإنّ منطلقها من تعلّقك بالدّنيا.

لكن هناك عوامل أخرى في النّفس الإنسانيّة ولذلك الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾! هناك شيء النّاس يخطئون فيه من أجل طبيعتهم فإنّهم يخطئون، لكن هناك شيء بسبب الطّمع! كلّما حاولوا أن يعالجوه لا يستطيعون أن يرجعوا!

فهكذا فهمنا أنّ الكبائر أحد أهمّ أسبابها وأسباب الإصرار عليها هو: حبّ الدّنيا والطّمع فيها، وكون أنّ الإنسان لا يريد إلّا هي! لأنّنا كلّنا في قلبنا حبّ الدّنيا، لكن هناك أحد يعالج حبّه للدّنيا ويتصبّر عليها ويسكتها، وكلّ فترة يقول لها: (عند الله الموعد، هناك ستجد، هناك ستلقى) وهكذا فهو لا يضحك على نفسه، ولا يكذب على نفسه، وإنّما هكذا هو يعد نفسه بالحقّ.

أحسن من الّذي ينام على فراشه ويقول: (سوف أجذب الأفكار الحسنة و...) من كلام الخرافات! أو الّذي يقول لنفسه أوهامًا! وأنّه يعيش أحلام اليقظة! ويفكّر في نفسه أنّه سيصل ويصبح عظيمًا ويقهر كلّ الّذين قهروه!

والمشكلة أنّه في نفوس هؤلاء الّذين فقط تهمّهم الدّنيا، حتّى لو أتينا بسيرة الآخرة، يصير كلّ همهم في الآخرة أنّه: (ألقى الّذي قهرني ولا أدخله الجنّة)! كأنّه على هواه! فهذا كلّه دليل على أنّه حتّى في الآخرة ما

همّك إلّا الدّنيا! أنت فقط صِل سالمًا يا أخي! صِل سالمًا! وقتها والله لا يهمّك إلّا أنّك تنجو!

لكن لأنّها هي النّفس الدّنيويّة فإنّه يريد الذّهاب إلى هناك ويتخاصم مع أعدائه! فأنت يوم القيامة لا تدري، ممكن تكون أنت الّذي عليك ليس لك! لكنّ النّفوس من كثرة الطّمع في الدّنيا تريد جعل الآخرة محكمة للمسائل الدّنيويّة، ولذلك يصعب على الإنسان العفو! ويصعب عليه معاملة (ادفع بالّتي هي أحسن!) يصعب عليه شؤون كثيرة بسبب ضعف الثّاني الّذي هو إرادة الآخرة.

لكن على الأقلّ الآن هكذا فهمنا بالإجمال هذه المسألة.

بقي علينا أيضًا شيء ثالث نؤكّد عليه في سورة النّجم. بعدما عرفتم أننا ذهبنا إلى سورة الرّوم لنفهم مسألة العلوم الدّنيويّة.

الآية (٢٣) من سورة النّجم تصوّر لنا:

لماذا وصل الإنسان إلى أنّه لا يريد ﴿إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؟

ارجعوا إلى سورة النّجم، نحن حين بدأنا من الآية (٢٩) و (٣٠) كان هذا جوابًا على سؤال: ما صفة ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾؟ وعرفنا أنّ صفة ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾:

التّولّي عن ذكر الله: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ أنت ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ هو ﴿عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾

فإذًا دعونا نرجع من أجل أن نتصوّر لماذا وصل الإنسان إلى أنّه لا يريد ﴿إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؟

هذا الآن سؤال جديد، يعني كيف يصير الإنسان كلّ همومه الحياة الدّنيا؟ ما هو مبدأ المسألة؟

سأجيب من الآية مباشرة رغم أنّ هناك نقاش طويل، سنجيب من الآية (٢٣) وبعد ذلك سنصل إلى الآية (٢٧) والآية (٢٨)، انظروا الآية (٢٣):

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾

ما المقصود بـ ﴿إِنْ هِيَ﴾؟ إشارة إلى الأصنام الّتي هي اللاّت والعُزّى و...

الله -عزّ وجلّ- وصف لهم ﴿هِيَ﴾: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ من سمّاها؟ ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ من أين سمّوها؟ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾.

فإذًا أنت الآن فهمتِ بأنّ الآية متّصلة بالأصنام، لكن نحن سنبعد الأصنام ونضع أيّ شيء يشبهها، ونقول:

النّاس تكبر عندهم الدّنيا لأنّهم يسمّونها أسماء، ويعطون لهذه الأسماء مضامين فاتنة تفتنهم، إمّا أنّهم هم من يصنعونها أو آبائهم من يصنعون ذلك! ويكون ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.

وبالمثال يتّضح المقال: لو أتينا إلى أشياء كثيرة مما يستهويها النّاس مثل: أن يُطلق عليهم مثلًا ألقابًا علميّة! تقول لك: (لا تناديني باسمِي المجرد! أنا عندي حرفين قبل اسمي ألف ودال! ولا تناديني باسمِي المجرّد! لابدّ أن تضعي هذه أوّلًا)!

الآن الحرفان هؤلاء ماذا يعتبرون؟ ما قيمتهم في الحياة؟ ما هي في الحياة؟ يعني مجرد أسماء صار لها قيمة! وصار الإنسان ممكن يقضي حياته كلّها من أجل أن يصل إلى أن يوضع هذا الحرف قبل اسمه، بعد ذلك يتطوّر ويضع الحرف الثّاني قبل اسمه، ويبذل جهده! ويبذل جهده من أجلهم!

الآن نحن لا نتكلّم عن كلّ النّاس -طبعًا المستثنين منهم كثير- لكن المقصد: الأوضاع المَرَضِيَّة الّتي يحصل فيها هذا الشّيء.

لو جاء يوم من الأيام، وأصبحت هذه الحروف ليس لها قيمة، بمعنى: أنّهم اخترعوا عنها بديلًا ما هو أعلى منها. ومن أجل أن تتصوّروا المسألة تذكّروا مثلًا قبل أربعين سنة أو خمسين سنة كان هذا الأستاذ الّذي معه الشهادة الابتدائية يجعلونه يدرّس من وراءه، وبعد ذلك بفترة قليلة كَثُرَ النّاس، فصار هذا الّذي يملك شهادة المتوسّط، كثروا قليلًا أصبحوا يقولون: (الّذي معه ثانوي، هذا الله يجزيه خيرًا فعل ما

عليه)! وفي كلّ مرّة النّاس يعلون إلى فوق، والأسماء السّابقة هذه لا يصبح لها قيمة! وهكذا...وممكن يتحاسدون! ويتخاصمون، ويخسر بعضهم بعضًا من أجل أن يحصلوا على هذه الأسماء!

فأنت من أجل أن تتصوّري الدّنيا، فإنّ الدّنيا كلّها ما هي إلّا عبارة عن أسماء!

نأتي بمثل قريب انظري: الآن عندما يلبسون ساعة، فمن أجل اسم الماركة فإنّها تشعر بنفسها وكأنّها عظيمة من العظماء لأنّها في يدها ساعة بهذا الاسم! ومن أجل أنّها تحمل حقيبة بهذا الاسم! ومن أجل أنّها أقامت في فندق بهذا الاسم، ومن أجل...

وفي النّهاية كلّ المسألة ترجع إلى الأسماء!

المشكلة: أنهم يأتون في رمضان حول الإنفاق على إفطار الصائم وغيره ويعتبرونه تبذيرًا! ويتكلّمون عن حلول لهذه المشكلة! ولم يتكلّم أحد عن حلول لمشكلة الشّراء من الماركات! وكيف أنّه اقتصاد دول يقوم على أناس مفتونين بأسماء!

فالمقصد الآن: أنّ الأسماء خدعت النّاس ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ فقط هي هكذا القصّة! وغدًا تذهب هذه الأسماء الغربيّة، ويُعلا شأن الشّرق! فالآن كلّ واحد يقول: (هذا صيني) وعمّا قريب -والله أعلم- تمتدّ بنا الحياة أم لا تمتدّ، سيصبح (هذا

أوربّي!) فالعالم متّجه لهذا الاتجاه، بأنّ الصّيني سيصبح له قيمة! والثّاني لا يصبح له قيمة!

وبعد ذلك نحن كلّما ذهب النّاس قبلة ذهبنا معهم؟!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ فالدّنيا هي كلّها مجرّد أسماء أشعرت نفسك أنّك لا تستطيع العيش ولا تكون سعيدًا إلّا إذا حصلت عليها!

وأنت تستطيع أن تعرف السّاعة من ساعة الحرم حتّى وإن لم تكن في يدك ساعة، لكن فقدت الأمور حقيقتها وانتقلت إلى أن تكون مجرّد أسماء، فصارت الدّنيا أوّل أمر فيها أنّهم يأتون إلى أسماء معيّنة فيعظمونها ويربطون السّعادة بها ويربطون الوجود بها ويصبح لك قيمة بسببها، وبعد ذلك فإنّك تصير رهينة!

وهذه مشكلة كبيرة حيث أنّنا نكون راشدين ويكون عندنا رشد، ومع ذلك تخدعنا الأسماء الّتي ليست لها حقائق!

وحين تنظرين إلى مواقف كثيرة تتّصل بالعلم -أقصد به التّعليم العام- أشياء كثيرة لها أسماء، وعلوم كثيرة لها أسماء، واختبارات كثيرة لها أسماء، وفي النّهاية يخرج هذا مسكين! يمكن حتّى لا يعرف يكتب! فيأتي في هذا العمر ومع ظهور التّقنية انظروا إلى إملائهم كيف يكتبونها؟! وكلّها أسماء مجرّد أسماء!

انظري كيف أنّ العبد الّذي اصطفاه الله -عزّ وجلّ- فجعل لسانه قائمًا على اللّغة الّتي تكلّم بها الله، ثمّ بعد ذلك يأتي يشوّه هذا اللّسان ويفتخر باعوجاج لسانه!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ وربطتم بها العزّة! وربطتم بها السّعادة! وربطتم بها الحياة! فالدّنيا لا تنقلب على صاحبها ويصير رهينة لها إلّا حين يُشعر نفسه بأنّه لا يستطيع أن يعيش إلّا بهذه الأشياء! ولا يحصل هذا إلّا حين يأتي يسمّي أشياء معيّنة بأسماء ثمّ يجد نفسه لا يستطيع أن يفكّر إلّا من خلال هذه الأسماء!

ولذلك الله -عزّ وجلّ- يقول عن الأصنام وعن كلّ شيء مثلها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ وإلّا فإنّك ممكن أن تكون سعيدًا بدون كذا وكذا! وممكن أن تكون في حالة حسنة بدون ما يحصل كذا وكذا!

لكن انظري إلى هذه الكلمة: الموضة الّتي يرى أصحابها أنفسهم بأنّهم متطوّرون! لا يرون أنفسهم عبيدًا! لأنّه فقط لو تفكّرتم بعقلكم الآن هذه السّنة كلّها هذا اللّون على قولهم هو الموضة! انتهت السّنة، ولأنّك أنت الآن تحبّين هذا اللّون بما أنّه الموضة يعني أصبحتِ تحبّينه وتألفينه وخزانة ملابسك كلّها منه! ثمّ بعد ذلك وفجأة انتهى هذا اليوم وانتهت هذه السّنة وأتت السّنة الّتي بعدها، وأنت تغيّرت! وأصبح هذا اللّون الّذي لا تحبّينه!

هل هذه هي الحقيقة؟! لا! ليست هذه الحقيقة! لكنّه عبد! أسياده قالوا: (انتهى لم يعد هذا اللّون..)!

فكيف ستتقدّم مصانعهم؟! وكيف سيعيشون على ظهرك؟! إلّا أن يأتوا لك بأسماء يُضخّمونها ثمّ بعد ذلك يجعلونك تسير خلفهم! ومن أجل ذلك فلا يأتِ أحد يقول: (أنا متحرّر)!

اسمعوا هذه صورة من صور العبوديّة! لأنّه حين تجدين النّاس يلبسون طويلًا ومحتشمًا، وتقول: (ما شاء الله! الله يبارك فيكم! الله يحفظكم!) يقولون: (لا! وإنّما هذا من أجل الموضة!) فتفهمين أنّه ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾.

فإنّ النّاس من أجل هذه الأسماء ممكن يرتكبون أيّ شيء خطأ، وممكن يرتكب أي خطيئة، والمسألة لا تتحمّل أنّك تنظرين المسألة من فوق وإنّما: فكّري! حلّلي! اربطي! انظري الواقع! ستفهمين هذا الشّيء، ستفهمين نحن إلى أين وصلنا؟

فكثير منّا يشعر أنّه هو بعيد عن حبّ الدّنيا! إمّا لأنّه غير متمكّن منها وليست في يده! أو لأنّه عنده زاوية معيّنة يعتبرها هي الدّنيا فقط! لكنّ حبّ الدّنيا ليس له علاقة بالتّمكن وعدم التّمكن، يعني ممكن أن تكون غير متمكّن من الدّنيا وما تقدر عليها، لكن قلبك يصبح ويمسي يتمنّى الدّنيا.

فانظري إلى هذا وانظري كيف أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يتمنّى أنّه لو يكون عنده مثل جبل أحد ذهبًا فما تمضي ثلاثة أيّام حتّى ينفقها. انظري هذه الأمنية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ وانظري الناس ماذا يقولون حتى لو ما تمكّنوا؟

فإنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ما كان عنده مثل جبل أحد ذهبًا لكنّه تمنّى لو يكون هكذا عنده، حتّى أنّه قال: «إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»[1] يعني لا يبالي صلّى الله عليه وسلّم! لا يبالي!

فانظري إلى هذه الأمنية وهو غير متمكّن -صلّى الله عليه وسلّم- لكن الأمنية هذه دليل على أنّه ليست هي المهمّ، في المقابل يمكن أن يكون إنسان غير متمكّن لكن قلبه أسبق من قلوب المتمكّنين للدنيا! أسبق في التّفكير! وطوال الوقت يرى هؤلاء عندهم! وهؤلاء ليس عندهم! وهؤلاء فعلوا! وهؤلاء عملوا! هؤلاء ذهبوا! هؤلاء سافروا! وبعد ذلك كأنّه لم يسمع: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[3]

كلّ هذه حقائق لابدّ أن تصير دائمًا على البال وليس كلامًا تقرؤه بلسانك ليس له أثر في نفسك!

فالمقصد من وراء هذا الكلام كلّه: أنّ حبّ الدّنيا لا يصير حبًّا إلّا حين تبتدئ التّسمية! يسمّي الأشياء ويربط بها سعادته! وأنّه لابدّ أن يكون هذا موجودًا! وما يصير موجودًا إلّا إذا وجد كذا! وإلّا إذا لقى

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٦) متن الحديث: «قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ -صلّى الله عليه وسلّم- فِي حَرَّةِ المَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا، تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ مَشَى فَقَالَ: إِنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ..))

(٢) طه: ١٣١.

(٣) النحل: ٩٦.

كذا! من الأسماء الّتي يحيط نفسه بها! وبعد ذلك يربط بها سعادته! ويربط بها مكانته! ويربط بها حياته! ويربط بها تنافسه! من أجل أن يحصل على هذه الأسماء الّتي سمّوها! ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾.

كيف ينبغي أن أسمّي الأشياء؟

أعطِ كلّ شيء اسمه مثلما جاءك من الهدى:

أنا كيف أسمّي الأشياء؟ كيف أسمّيها؟ اقرئي تكملة الآية (٢٣): ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ يعني حتّى الأشياء تسمّيها مثلما جاءك من الهدى، أعطِ كلّ شيء اسمه.

ودعونا نفكّر في شيء أتركه معكم فكّروا فيه للأسبوع القادم: الآن (الفوز، الفائزين، الّذي فاز)

انظري هذه الكلمة: فاز! وفزنا! والفائزين! فإنّها من أكثر الكلمات الّتي تدور في البيوت ابتداء بأجهزتهم وانتهاء بالأشياء العامّة!

والله -عزّ وجلّ- في كتابه يقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]

لكن هذه من الكلمات المتداولة جدًّا في أماكن حقيرة جدًا! لدرجة أنّه ينتشي ويشعر بالسّعادة لو فاز في هذه! ويبكي ويلقي بنفسه في الأرض، ويبحث عن أحد يرضيه لو خسر في هذه! غير أنّه بعد ذلك

(١) آل عمران: ١٨٥.

الأمر يتطوّر فيصبحوا أحزابًا ويتنازعون! والإخوة في البيت يتحاربون! وبعد أن كنّا أنا وابن عمّي على الغريب، وأنا وأخي على ابن عمّي، صرت أنا والغريب على أخي! وعلى ابن عمّي! وعلى عائلتي كلّها! مادام أنّهم ليسوا من فريقي، أو ليسوا من جماعتي! وكلّ هذا بسبب ماذا؟ بسبب ﴿أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾.

انظري كيف أنّك تستغربين أنّه يلعب بلعبة تافهة مالها قيمة، وحين يأتي أخوه يوقعه أرضًا أو يفعل له شيئًا فإنّه يقول له: (خسّرتني!) ويبكي! ويُلقي نفسه على الأرض! وأنت تشعرِين أنّه شيء تافه ليس له قيمة، لكن هو عنده ماذا؟ هو عنده اسمه: **فائز**! ويشعر بالانتشاء! ويترك دراسته! ويترك العمل! ويترك كلّ شيء من أجل أن يجري ويفعل هذا الشّيء! كلّ هذا بسبب ﴿أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾.

وأنت فكّري، فكّري سوف تفهمين هذا الأمر جيدًا، وأنّنا أُحطنا في الحياة كلّها بأسماء سمّيناها، نحن وآباؤنا! والآن نحن بالنّسبة لأبنائنا نحن سمّيناها وهم يحصدون ويسمّون أشياء جديدة على نفس المنوال! وسيخرجون بنفس النّتيجة!

فالله يحفظنا جميعًا ويهدينا جميعًا، ويجعل القرآن العظيم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاء لهمومنا وأحزاننا، اللّهم آمين.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الثّاني

٣ المحرّم ١٤٤٠هـ

المقدمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة حول الإخلاص في الاجتماع حول العلم:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مُباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممّن استقام على سنّة نبيّه محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- فكان على الصّراط المستقيم، فبلغ المَرَاضِي كلّها ووصل إلى جنّات النّعيم، اللّهم آمين.

لازلنا نشكر ربّنا ونحمده على الاجتماع حول العلم، ولازلنا نُذكّر أنفسنا: أنّ هذه الاجتماعات كلّها تحتاج إلى جدّ واجتهاد مع النّفس في الإخلاص لأنّه ليس لهذه الاجتماعات مقصد إلّا رضا ربّ العالمين، لكن مع العادة و مع توفّر الأحوال، وتيسّرها أصبح الإخلاص عزيزًا! والمفترض أن كثرة توفّر النّعم تزيدها شكرًا، ومن أعظم الشّكر ألّا يكون العلم إلّا لوجهه -سبحانه وتعالى- فنسأل الله -عزّ وجلّ- أن يجعلنا مخلصين صادقين، وأن يثقّل بالعلم الموازين، اللّهم آمين.

ملخّص ما قيل في اللّقاء الأوّل:

كنّا في أسبوعنا الماضي قد ابتدأنا بالكلام حول آية سورة النّجم، وهو الكلام حول **مسألة الكبائر**، وعرفنا مفهومين حول هذه المسألة:

- المفهوم الأوّل: هو أنّ السّبب الرّئيس للوقوع في الكبائر: حبّ الدّنيا: وقد تبيّن لنا هذا من سياق آيات النّجم.
- المفهوم الثّاني: أنّ حبّ الدّنيا يجعل علم الإنسان وفهمه واجتهاده كلّه دائر حول الدّنيا، فقد اطّلعنا أيضًا على آية سورة الرّوم وعرفنا أنّ صنفًا من النّاس: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1]

الحلّ في علاج حبّ الدّنيا الّذي يوصل إلى الامتناع عن الكبائر

نريد اليوم أن نناقش: ما هو الحلّ في علاج حبّ الدّنيا الّذي يوصلنا إلى الامتناع عن الكبائر؟ لأنّ النّتيجة الأساسيّة الآن الّتي عندنا: أنّ الكبائر الّتي يقع فيها النّاس إنّما أساسها حبّ الدّنيا، فحين نعالج حبّ الدّنيا، سنعالج الوقوع في الكبائر.

إذًا آية النّجم تقول لنا: إنّ الوقوع في الكبائر سببه حبّ الدّنيا، إذَا عالجتِ حبّ الدّنيا؛ ستكون النّتيجة علاج الكبائر.

بكلمة مختصرة: فإنّ علاج حبّ الدّنيا يكون بالإيمان بالغيب: وهذه كلمة مختصرة لكنّ معانيها غزيرة، وتحتاج إلى لقاءات ولقاءات، وكنّا

---

(١) الرّوم: ٧.

قد مرّ معنا سابقًا في درس الخميس دراسة كتاب "الرّقاق في صحيح البخاري" وكان مقصد الكتاب معالجة حبّ الدّنيا؛ بمعنى: أنّ علاج حبّ الدّنيا دائر حول إيماننا بالغيب، كلّما ازددنا إيمانًا بالغيب جفّ في النّفوس مورد حبّ الدّنيا.

لعلاج حبّ الدّنيا لابدّ أن يكون الإنسان حريصًا غاية الحرص على أن يعرف نفسه ويراقبها ويعرف ما صورة حبّ الدّنيا عنده؟

المشكلة أنّ حبّ الدّنيا إذا وقع في القلب وتمكّن فإنّ مظاهره - مظاهر حبّ الدّنيا- تتنوّع على حسب حال الإنسان، يعني

⇐ ممكن يتعلّم الإنسان القرآن من أجل حبّ الدّنيا وليس من أجل الآخرة.

⇐ ممكن يجاهد في سبيل الله من أجل الدّنيا وليس الآخرة.

⇐ ممكن ينفق ماله من أجل الدّنيا وليس الآخرة.

ودليلنا ظاهر ومحفوظ: فقد ورد في الحديث أنّ أوّل ثلاثة تُسَعّر بهم النّار قارئ القرآن! يقرأ القرآن من أجل ماذا؟ «لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ»[1] فمعنى ذلك: أنت لا تتصوّري أنّ حبّ الدّنيا له صورةً واحدة حيث أنّه لا يحبّ الدّنيا إلّا المتمكّن منها أو لا يحبّ الدّنيا إلّا المُقبل على زينتها!

(١) أخرجه مسلم (٣٦٣٨).

ماهي زينتها؟ ممكن يكون ثناء النّاس هو زينتها! فإنّ ثناء النّاس زينة الدّنيا عند أهل الدّنيا إنّما هو أعظم من زينة المال! بدليل أنّ قارون قد أوتي من الكنوز ما إنّ مفاتيح هذه الكنوز ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[1] يعني تصوّري مفاتيح الخزائن ثقيلة على العصبة: الجماعة، وهذا فيه دلالة على كثرة الخزائن! ومع ذلك لماذا لم يبقَ في منزله ويتمتّع بماله؟ لكن ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[2] لأنّ المتعة الأعظم هي ثناء النّاس.

ولذلك حين تلحظين أهل الدّنيا -وكلّنا ذاك الرّجل إلّا من رحم الله؛ لأننا حين نقول: (أهل الدّنيا) تشيرون إلى بعيد- يهتمّون بالأشياء الّتي فيها ثناء النّاس، وسنبدأ من الدّنيا الّتي يتّضح لنا جليًا أنّها دنيا، قبل أن نبدأ بالأشياء البعيدة:

⇐ الملبس الّذي يلبسه الإنسان يلبسه إذَا كان هو مقتنعًا به في الأصل، لكنّ أناسًا لا يفكّرون بهذه الطّريقة وإنّما يفكّرون أنّه كم عينًا ستُعجب بي؟

⇐ والسّاعة الّتي يلبسونها في الأصل المفترض تكون من أجل معرفة التّوقيت، لكن تُلبس لمقصدٍ آخر!

⇐ وهكذا! إلى أن نصل أنّه يتعلّم علومًا معيّنة حتّى في الدّين، ويجوّد تجويدًا خاصًّا من أجل أن يُثنى عليه!

---

(١) القصص: ٧٦.

(٢) القصص: ٧٩.

وقولي له: (كلّ هذا الجهد اجعله في صلاح قلبك، وفي مراجعة أعمالك، وتعلّم أعمال القلوب وطبّقها على نفسك) ستجدين بأنّه لا يوجد حماس لذلك! ما هو الفرق؟ الفرق أنّه حتّى العلم أصبح للدّنيا، من أجل أن يُثنى عليه.

يعني حين يُقال له: (أنت حفظت القرآن الحمد الله، وقوّتك هذه الّتي بعد حفظ القرآن لابدّ أن تجعلها في الانتفاع بالقرآن عمليًّا) فيقول: (لا! أنا أريد أن أُعلي سندي! أنا أريد أن أفعل كذا! أنا أريد أن آتي بكذا من العلوم الّتي أدقّ وأدقّ!) هذه العلوم بنفسها ممدوحة لكن مع الإخلاص تكون ممدوحة فلا تكون وسيلة للدّنيا!

ففي النّهاية: إنّ حبّ الدّنيا له أشكالًا لا نهائيّة!

مُحبّ الدّنيا يلحظ ثناء النّاس ومحُبّ الآخرة مقصده فقط ثناء الله:

ولا يأتِ أحد يقول: (لا! أنا الحمد الله من أهل الدّين ومن أهل الصّلاح ومالي علاقة بالدّنيا! ولا أتفاخر ولا أتكاثر بمظاهر الدّنيا!)

ولكن لا! فحتّى التّفاخر والتّكاثر يكون من مظاهر الدّين! وحتّى حين يأتي يقول: (أنا عندي سلسلة كتب كنت اقتنيتها وكلّ سنة أشترى من الكتب كذا وكذا!) أو (أنا أُؤَلِّفُ كتبًا! أو أنا أكتب! أو أنا أفعل! ويكون كلّ هذا مقصد صاحبه الدّنيا والتّفاخر! فالتّفاخر يصير بكذا...! ويصير بكذا...!

ففي النّهاية هناك شيء لابدّ أن نفهمه: وهو أنّ مُحبّ الدّنيا يلحظ ثناء النّاس، ومحُبّ الآخرة مقصده فقط ثناء الله.

طلب ثناء الله ليس مجرّد دعوة إنّما هو كثرة مناجاة مع ربّ العالمين تطلب فيها ثناء الله:

فحين يناجي ربّه بأيّ عمل -مثلًا- هذا اليوم من الأيّام المباركة علينا في الاجتماع حول العلم، الله يثبّتنا ويحفظ علينا النّعمة!

أنت الآن خارجة من البيت، وهذا اليوم عادةً يُبتدأ به الإجازة فأناس يذهبون وأناس يأتون، لكن لاحظي نفسك، والحظي قلبك، ممكن يكون هذا من أجل أن يُقال -ما شاء الله- تهتمّ بالعلم! وممكن يكون هذا جهاد فتناجي ربّ العالمين: (أنا لا أفعل هذا إلّا من أجل أن ترضى، أنا لا أفعل هذا إلّا من أجل أن ترضى.) فالفارق الآن بين النّاس في هذا الموقف: أنّهم يطلبون ثناء الله، وطلب ثناء الله ليس مجرّد دعوة إنّما هو كثرة مناجاة مع ربّ العالمين تطلب فيها ثناء الله.

فهذه إذًا الكلمة المختصرة في علاج حبّ الدّنيا: أنّ الإنسان يكون حريصًا غاية الحرص على أن يعرف نفسه ويراقب نفسه ويعرف ما صورة حبّ الدّنيا عنده؟ فلا تأتون إلى صور معيّنة وتقولون: (أنا لا أحبّ الماركات، أنا لا أحبّ كذا وكذا، أنا لا أحبّ كذا وكذا؛ إذًا أنا لا أحبّ الدّنيا)! لا! وإنّما الدّنيا ليست صورةً واحدة! فالشّيء الّذي تحبّه فتش فيه أنت لماذا تحبّه؟ وحتّى لو تحبّ مجالس العلم لابدّ أن تفتّش

لماذا تحبّ مجالس العلم؟ حسنًا ما هو الجواب الذي من المفترض أن يكون؟

المفترض أن يكون الجواب: أنا أحبّ هذا الطّريق أو أحبّ هذه المجالس أو أحبّ القرآن من أجل أن أنتظر ثناء الله، ويحصل لي فيها ما يحصل من العلم ومن الفهم، ومن انشراح الصّدر، يحصل فيها ما يحصل بيني وبين ربّ العالمين، ليس أنا والنّاس! إنّما أنا والله، فالّذي يشغلك هو الله ورضوانه.

فإذًا هذا الكلام المجمل الّذي نقدر أن نقوله سريعًا: من أجل أن تعالج حبّ الدّنيا فتّش في الأشياء الّتي تحبّها، ماذا تريد من ورائها؟ ماذا تريد؟ إذَا كان ثناء النّاس فهذه هي الخسارة العظيمة! إذا كان ثناء الله فهذا هو الفوز العظيم.

ومن أجل ذلك يُلخّص علاج حبّ الدّنيا: التّوحيد، يعني أن تكون أنت واحدًا في الأرض لا يشغلك إلّا واحد في السّماء -سبحانه وتعالى- لا يشغلك رضا أحد غيره، حتّى لو تعاملت مع الخلق وتعاملت مع الأشياء فإنّك تبذل جهدك.

إذَا تعاملت مع الأشياء قليلها وكثيرها فلا تتخلّى عنها وإنّما ابذل جهدك وابتغ الدّار الآخرة تريد بها ثناء الله والقربى منه سبحانه، كما قيل لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾[1] يعني أنت لا تتخلَّ عن الأشياء! لكن من هذه الأشياء ستبتغي الدّار الآخرة، فإذَا كان

(١) القصص: ٧٧.

عندي أولادًا فإنّي أبتغي بهم الدّار الآخرة، إذَا كان عندي مالًا ابتغ الدار الآخرة، فالّذي يكون قليل الشّيء أو كثيره أُريد القربى من الله به، أُريد ثناء الله -عزّ وجلّ- به.

ولذلك انظري إلى رحمة الله ولطفه ورأفته بخلقه، يُحبّ من العبد إذا أكل الأكلة أن يحمده، الأكلة الّتي هي أصلًا من الدّنيا، لكن ﴿ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ هذه الوجبة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ماذا ستفعل؟

١) تنسبها إلى الله.

٢) تحمد الله -عزّ وجلّ- عليها.

٣) تنتظر من ربّ العالمين المزيد.

٤) تعرف أنّ هذا الّذي تأكله من تفضُّله فلا حول لي ولا قوّة فيه.

٥) وترى أنّ هذا إنّما هو مجرّد مقوّم للحياة وأمّا النّعيم فهي جنّات النّعيم، والنّعيم الحقيقي هو ما عند الله ربّ العالمين.

على كلّ حال الغفلة موجودة، والإنسان لا يكون إنسانًا إلّا بغفلته، والنّبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد أخبرنا بالوصف الّذي يزيد الأمل فينا أنّه: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ»[1] لكن نفس الخطّائين هؤلاء فيهم خيريّة،

(١) أخرجه الدارمي(٢٦٩٦).

فيهم أهل خير، ألم يقل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ» وبعد ذلك؟

نعم، فيه خير فصفة أنّك مُخطئ وأنّك تغفل هذه صفة باقية فيك ولست مثاليًّا، ولست خارج النّطاق الإنساني، وكلّ واحد يوهمك بأنّك ممكن أن تصل إلى مرحلة ألّا تخطئ، ولا تزلّ قدمك ولا تغفل فإنّه يوهمك بالباطل! وفي النّهاية تقع وتفقد قواك! لكن الصّحيح أنّ «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ» لكن في الخطّائين أهل خير: «خَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» فإذًا تُب والحمد الله الباب مفتوح.

ولذَا فإنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يُعدّ له في المجلس الواحد أكثر من سبعين استغفارًا، يستغفر ويتوب، وسبحان الله وبحمده مائة مرّة، الّتي نقولها في أذكار الصّباح وفي أذكار المساء، هذه تزيل عنك ذنوبك ولو كانت مثل زبد البحر، يعني حين تكون سبحان الله وبحمده تفعل هذا، والنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يُعدّ له كذا، فإنّ هذا دليل على أنّ الخطأ وارد، بل هو أكيد أنّه وصف لنا، فلا تطلب من نفسك المثاليّة، فقط زكِّ نفسك وابقَ متّجها الاتّجاه الصّحيح.

بمعنى: أنت الآن حين تأتي تصلّي في مكان فإنّ أوّل سؤال تسألينه: (أين القبلة؟) أليس كذلك؟ وإذَا صلّيتِ واكتشفتِ نفسك أنّك عكس القبلة ماذا ستفعلين؟ الصّحيح أنّك ستعيدِين الصّلاة، لو كنتِ في مكان ممكن أن تسألِي وأنتِ صلّيتِ من عندك، فإنّك تعيدِين الصّلاة، وهكذا بالضّبط الدّنيا!

أصلًا أنت المفترض أن تكون دائمًا قبلتك الآخرة، هذه هي قبلتك لأنّك أصلًا كلّ يوم يزيد عليكِ فإنّك تتركين الدّنيا وراءك وتتقدّمِين للآخرة، يعني المفترض أن تكون الآخرة هي الّتي بين عينيك هي قبلتك، القبلة الّتي تتّجهين إليها.

حين تأتي في مواقف وتصير الآخرة ليست هي الّتي تشغلِني! أذهب يمينًا وأذهب يسارًا وأشتغل بالدّنيا! وهذه حالة دائمة نحن فيها، فكلّ مرّة نعمل فيها كذا فإنّنا نستغفر ثمّ نعود وننشغل بالدّنيا! وكلّ مرّة نلتفت يمنةً ويسرةً عن مقصدنا نستغفر فنعود إلى هذا المقصد! ولذَا فإنّه إذَا قسى القلب ما الّذي يليّنه؟ يليّنه:

⇐ كثرة الاستغفار والتّوبة.

⇐ ذكر الدّار الآخرة.

⇐ ذكر الموت.

لأنّ كلّ هذا يجعلك تترك الدّنيا فلا تتّجه وتصبح قبلتك وإنّما تصبح قبلتك الآخرة.

ولذلك النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يقول لابن عمر: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» كن غريبًا مسافرًا! كن عابر سبيل فقط تمرّ على الأشياء مرّا وأنت تمشي! تمشي!

ابن عمر -كما مرّ معنا سابقًا- في كتاب الرّقاق نتيجة هذه الوصيّة ماذا قال؟ وماذا فعل؟ كان هذا قانونه حين قال له النّبيّ صلّى الله عليه

وسلّم: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» ماذا كان انفعاله؟ «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ»[1] يعني في الصّباح أنجز كلّ ما تستطيع إنجازه من أجل أن تقترب من الله، وإذا أمسيت أنجز كلّ ما تستطيع إنجازه من أجل أن تقترب إلى الله، ولا تدفع شيئًا للغد!

فالمقصد من وراء هذا النّقاش كلّه مرّةً أخرى: أنّ العيش في الدّنيا هو وسيلتك للوصول إلى الآخرة، لكن كلّ المطلوب منك أن تعيش الدّنيا وأنت مستقبل الآخرة، لا تعطِ ظهرك للآخرة لأنّ الدّنيا لن تبقى لك! لا تعطِ الآخرة ظهرك وإنّما أعطِ الآخرة وجهك واستدبر الدّنيا عِش فيها واستدبر الدّنيا، وهذا نظامه يكون: أنّ كلّ شيء تبتغي فيه وجه الله، تبتغي فيه القربى إلى الله، فلابدّ أن تعيش الحياة من أجل أن تتقرّب إلى الله.

هذا الكلام كلّه ذكرناه الأسبوع الماضي وتناقشنا فيه -لا بأس- وهذه المرّة نكرّره وسنبقى نكرّره لأنّ كلّ الانحرافات سيعود سببها لحبّ الدّنيا.

حبّ الدّنيا هو الّذي يُغري النّاس، ويجعلهم يدخلون في كلّ باب، ولذلك حين وصف الله -عزّ وجلّ- المنافقين في سورة البقرة، وصفهم أنّهم يعتقدون أنفسهم أنّهم مصلحون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٩).

الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]

يعني هم يعرفون أنّهم مفسدون أم لا يعرفون؟ لا! لا! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2] ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾

ما هو الفيصل بين الّذي يُصلح وهو حقيقةً مُصلح، وبين الّذي يظنّ نفسه يصلح وهو مُفسد؟ الفيصل هي نفسها الكلمة، فالّذي يدفعك للتّعلق بالدّنيا أكثر! وحبّها أكثر! وعبوديّتها أكثر! هذا يظنّ نفسه أنّه يصلح وهو مُفسد! والّذي يدفعك أن تعيشي الدّنيا من أجل الآخرة، هذا معناه أنّه يُصلح في موطن الصّلاح الحقيقي.

ولاحظي أنّ كلّ الممارسات الّتي فيها سموّ، وقيم عليا لابدّ أن تبتدئ بترك حبّ الدّنيا؛ لأنك لا تستطيعين أن تبذلي مالًا من مالك حتّى ولو كان الزّكاة إلّا إذا فكّرتِ في لقاء الله، وليس: (لماذا أُخرج من مالِي وأعطي غيري؟ لماذا أبذل جهدي وأتعب أيّامًا وليالي وبعد ذلك يأتي ويُقال لي: (هذا مالك الّذي جمعته أخرج منه كذا وكذا؟) لا يمكن أن تُخرج هذا المطلوب إلّا إذا كانت الدّار الآخرة على بالك. ولا يمكن أن تشفق على أحد، ولا يمكن أن تعين أحدًا، ولا يمكن أن تفعل الأشياء الكبيرة من ممارسات القيم العليا إلّا إذا كنت تفكّر في الدّار الآخرة.

---

(١) البقرة: ١١_١٢.

(٢) البقرة: ٩.

فمعنى ذلك: أنّ ذكر الدّار الآخرة يُصلح الدّنيا لا يفسدها ويجعل النّاس يستطيعون أن يحتملوا بعضهم بعضًا، يأتي الواحد للثّاني يقول له: (إن هي إلّا أيّامًا وسنذهب!)

ونحن في درسنا هذا درس الخميس، كان معنا أشخاص يأتون ويسألون ويذهبون ثمّ بدأ العام وبدأت هذه الدّورة وقد توفّاهم الله! فمعنى ذلك: أنّه لو حسبت الحسبة بهذه الطّريقة، ستقول: (الدّنيا لا تستحقّ أن نتخاصم عليها!) ولذلك متى النّاس يشعرون ببعضهم؟ حين يرحل أحدهم، حين يرحل يحبّونه!

لماذا لم تحبّوه وهو في الدّنيا؟ لماذا لم تتسامحوا معه وأنتم في الدّنيا؟ سننتظر حين يموت ثمّ بعد ذلك نغضب من أنفسنا أنّنا تصرّفنا هكذا! وتصرّفنا هكذا!

لكن ستبقى هي العلّة العليلة: أنّ الّذي يحبّ الدّنيا يُظنّ أنّه خالد، والّذي يذكر الآخرة تصلح له الحياة، وتسهل عليه الأمور ويراها سهلة لا تستحقّ هذا كلّه، وكلّ الّذي يتخاصم النّاس عليه لا يساوي عند الله جناح بعوضة!

ضابط ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾

ما هو ضابط ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؟

فإذًا اتّفقنا على مدخل الكلام عن الكبائر، دعونا اليوم نتّفق على:

- ما هي فوائد اجتناب الكبائر؟
- ما هي المصالح الّتي سوف تأتينا حال اجتناب الكبائر؟

إذًا بسم الله...

هذا الكتاب المدروس: هو **كتاب (الكبائر) للشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله**، وهو كما سيتبيّن لكم عبارة عن فصول، سنبذل جهدنا في كلّ فصل نعطي موجزًا له.

سنبدأ أوّلًا تحت عنوان: الفوائد من ترك الكبائر

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر: (بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب الكبائر وقول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾).

سننظر إلى سورة النساء الآية (٣١) الّتي هي أوّل نصّ موجود في الكتاب.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾

هذه الآية تجيب على سؤال: ما هي المصالح المترتّبة على اجتناب الكبائر؟

والجواب ظاهر في الآية: الله -عزّ وجلّ- في سورة النّساء يخبر أنّ من اجتنب كبائر ما نهى عنه سبحانه وتعالى:

- يكفّر الله عنه السّيئات.
- ويدخله مدخلًا كريمًا.

سنناقش ثلاث مسائل هنا:

المسألة الأولى: ما هو ضابط ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؟

المسألة الثّانية: معنى ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ما هي السّيّئات المقصودة هنا؟

المسألة الثّالثة: ما معنى ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾؟

في نفس المتن سنجد معنى كلمة "كبائر":

قال: (روى ابن جرير عن ابن عباس قال: "الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب".

وله عنه قال: "هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار".)

هذا نقل لكلام الطّبري -رحمه الله- الطّبري ينقل عن ابن عبّاس -رضي الله عنه- ضابط الكبيرة، يعني كيف تعرف أنّ هذه كبيرة؟ (قال:

"الكبائر كلّ ذنب ختمه الله بنار) يعني ورد في كتاب الله الخبر عن الذّنب، ثم خُتمت الآية الّتي ورد فيها الكلام عن الذّنب بوعيد بالنّار، إذَا وجدنا في الآية وعيدًا بالنّار فإذًا هذا الذّنب كبيرة.

أو ورد خبر عن الذّنب وورد فيه لعن: فإذا وجدنا ذنبًا من الذّنوب يُلعن صاحبه، أو فاعله يصبح الذّنب كبيرة.

إذًا إلى هنا ضابطان:

إذَا وجدتِ ذنبا خُتم بالكلام عن النّار: فإذًا هو كبيرة.

أو لُعن صاحبه أو لُعن فاعله: فهو كبيرة.

وأيضًا:

أو ذُكر أنّ الله -عزّ وجلّ- غضب على صاحب الذّنب: فهو أيضًا كبيرة.

أو ذُكر عذاب خاصّ لصاحب الذّنب: يكون أيضًا هذا كبيرة.

فإذًا إذَا خُتم بنار أو لعن أو غضب أو عذاب.

وهذا معناه: أنّ القارئ لكتاب الله، أو لحديث رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- لابدّ أن يلحظ الذّنوب، ويعرف أنّها مراتب، ليست منزلة واحدة، فإذَا وجد هذه الذّنوب مختومة بنار، أو لعن، أو غضب من الله، أو عذاب: فإنّه يعلم أنّها كبيرة.

أمام تسمية بعض الذّنوب "كبائر" علمنا أنّ هناك "صغائر" بناء على ذلك فإنّ الذّنوب انقسمت إلى:

- كبائر كما نُصّ عليه.
- وسيقابل الكبائر الصّغائر.
- وسنرى أن بعض أهل العلم أضاف إلى الصّغائر اللّمم، وبعض أهل العلم اعتبر اللّمم هي نفسها الصّغائر.

كيف أصلًا أعرف أنّ هذا ذنب؟

كيف ستميّزين الكبائر من الذّنوب؟ بهذه الأمور الّتي تقترن مع الذّنب.

كيف أصلًا أعرف أنّ هذا ذنب؟ فإذًا نحن عندنا أمرين:

الأمر الأوّل: أن أعرف بأنّ هذا ذنب.

الأمر الثّاني: ثمّ أنتقل منه لأعرف أنّ هذا كبيرة.

- المشكلة الأولى: هي أنّنا غالبًا لا نعرف الذّنوب نفسها!

وقد تتصوّرين أنّنا نعرف الذّنوب ونحن نقرأ كلام الله! لكن دعونا نقوم بتجربة ونرى هل سنعرف أم لا نعرف؟ سنجرّب في سورة البقرة.

نجرّب التّجربة الأولى في الآية (٥٨) والآية (٥٩) من سورة البقرة:

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ

وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١]

أنت تقرئين هذه الآيات عادةً الكلام في ذهننا عن بني إسرائيل، وهذا كلام صحيح، فالآيات في سياق الخبر عن بني إسرائيل.

لكن هل تتوقّعين أنّ الكلام عن بني إسرائيل من أجل أن تسمعي التّاريخ؟!

⇐ وإلاّ فأنت الآن تقرئين سورة الفاتحة وتقولين لربّ العالمين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢]

⇐ وبعد ذلك تقولين: ﴿صِرَاطَ﴾ من؟ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

⇐ ثمّ تقولين ﴿غَيْرِ﴾ من؟ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٣]

⇐ فربّ العالمين ما دمت تسألين هذا السّؤال فقد أتتك الإجابة، فقال لك في سورة البقرة: ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٤]

---

(١) البقرة: ٥٨_٥٩.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) الفاتحة: ٧.

(٤) البقرة: ١_٢.

⇐ ألست تطلبين الهداية؟ ﴿الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ لمن؟ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾

⇐ فالكتاب فيه هدى لمن أراد أن يهتدي، يدلّك ما هو الصّواب؟ ما هو الحقّ؟

⇐ وفي الكتاب أيضًا بيان طريق المغضوب عليهم وطريق الضّالّين، من أجل ماذا؟

أنت تقولين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني بيّن لي الصّراط الّذي يوصل إلى مراضِيك، فقيل لك: الكتاب ﴿هُدًى﴾ سيهديك إلى مراضِي ربّ العالمين، ويدلّك على مساخطه.

⇐ فأنت ستتمسّك بالهدى وستترك السّخط.

إذًا حين جاء خبر بني إسرائيل في كتاب الله وأتى الكلام عن النّصارى في كتاب الله وغيرهم من الأقوام كان من أجل أن تعرف صراط المغضوب عليهم وصراط الضّالّين، وبعد ذلك تجتنبه.

وهذا مناسب جدًّا للآية الّتي نتدارسها؛ لأنه في الآية ماذا يقول الله -عزّ وجلّ- في سورة النّساء؟ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] كيف تُنهون عن الكبائر؟

إمّا يُقال لك: لا تفعل.

---

(١) النّساء: ٣١.

أو يُقال لك: المغضوب عليهم فعلوا، الضّالّون فعلوا.

فإذَا قيل لك المغضوب عليهم فعلوا والضّالّون فعلوا فكأنّه يُقال لك: اجتنبهم.

فإذًا دعونا نرى في هاتين الآيتين ماذا سنجد؟

وهنا أين تبدأ المشكلة؟ في القدرة على تمييز الذّنب، يعني كلّ طريق المغضوب عليهم وكلّ طريق الضّالين الّذي أتى في كتاب ربّ العالمين إنّما هو من الذّنوب، فكلّ مرّة تقرأ كتاب الله، وتقرأ سيرتهم، وترى ذمّ الله لهم، تعرف أنّ هذا ذمًّا، عليك أن تجتنبه، فإذًا ميّزه من أجل أن تجتنبه.

في الآية (٥٨) والآية (٥٩) ما هو الذّنب؟ قيل لهم ماذا؟ ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وأيضًا دخولهم للقرية من أجل مصلحتهم أن يأكلوا، وأن يدخلوا وهذه حالهم أنّهم: ﴿سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وَوُعدوا بأيّ شيء؟ بأن تغفر لهم خطاياهم، وأنّ الله -عزّ وجلّ- سيزيد المحسنين.

أمام هذه النّعم ماذا كان موقفهم؟ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ معنى ذلك: أنّهم سمعوا كلام الله، وبعد ذلك ماذا فعلوا؟ بدّلوه! يعني جعلوا دلالة كلام الله على خلاف ما أمر الله، يعني يأتون إلى نصوص كتاب الله الّذي نزل عليهم ويجعلون نفس النّصّ يدلّ على معنى مُخالف.

وأنت أكيد اليوم تشهدِين مثل هذا: أنّ النّاس يأتون إلى نصوص كلام الله المحفوظ لفظًا وماذا يفعلون؟

يضعون عليها معان فيبدّلوا كلام الله! فكلّ مرّة تشهدين فيها تبديلًا لكلام الله! هذا يعني أنك تشهدين ذنبًا عظيمًا! لأنّ تبديل كلام الله، بمعنى: إعطاء كلام الله معنى غير المقصود! سيكون ذنبًا.

فإذًا هذا الذّنب سيكون كبيرة أم ليس كبيرة؟ اقرئي آخر الآية: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فكلّ هذا يدلّك على أنّها كبيرة من كبائر الذّنوب.

فحين يخرج بكلّ سهولة شخص، الله أعلم مَن دفع له من أهل الباطل! ويتكلّم باسم الحقّ، ويعطي للآيات معنى لم يرد أبدًا! يجعلك في مكان مخالف تمامًا لدين الله! وتقبلين ما يقوله وكأنّ هذا الدّين ما حُفظ! وكأنّ الله -عزّ وجلّ- ما حفظ لك العلم ابتداء من كتابه وانتهاء بسنّة نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- والسّلف الصّالح! وكم كُتب في فهم هذا الكتاب العظيم من القرون المفضّلة؟!

وهذا الشّأن ما هو إلّا من التّقصير، فإذًا على الأقلّ حين أكون مقصّرة ولا أعرف معنى الآية، ليس كلّ ريح تهبّ وتأتي إلى كتاب الله وتعطيه معاني أنا أقبلها! على الأقلّ من التّقوى أنا أقول: لابدّ من أن يكون عالمًا راسخًا في العلم أقبل منه القول، لا تقولي: (أنا اقتنعت بكلامه)!

وهذه الأزمة سببها: أنّ النّاس تعلّموا القراءة والكتاب بدون أن يتعلّموا الفقه، فصار كلّ واحد ممكن أن يخترع! لدرجة أنّه يخرج لنا واحد يريد ذمّ البخاري والمشكلة: أنّه أحيانًا يكون حتّى بعينه ما رأى الكتاب! أو أنّه رأى الكتاب لكن ما عرف كيف يقرؤه! كتاب البخاري الآن سواء جزء أو أجزاء، مكتوب عليه: (الجامع الصّحيح) هكذا اسمه الجامع الصّحيح في أحاديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ومرويّاته، بعد ذلك تحته في الطّبعات الحديثة مكتوب جمعهُ، بعد ذلك مكتوب اسم البخاري، فيخرج واحد يريد ذمَّ البخاري، يقول: (هذا كتاب البخاري الّذي صاحبه جُمْعَة)! ويُكمل الباقي! يعني حتّى قراءة لا يعرف كيف يقرأ؟! لا يعرف يقرأ الغلاف! إذَا كان لا يعرف يقرأ الغلاف فماذا تنتظرين منه؟! واحد مثل هذا يُطلق على النّاس كلامًا وبعد ذلك يقبلونه؟!

ونقرأ في كتاب الله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ماذا تنتظرِين؟ فمثل هذه كبيرة عظيمة من كبائر الذّنوب، لأن الله -عزّ وجلّ- أنزل على أصحابها ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾!

فالمقصد الآن من هذا المثال: أنّ مشكلتنا أصلًا أنّنا لا نعرف الذّنب؛ لأننا متوقّعون أنّ الذّنب يدخل تحت قاعدة حرام وحلال هذه هي المشكلة! وليس أنّ الذّنب يدخل تحت قاعدة: هذا مَسلك المغضوب عليهم ومسلك الضّالّين!

فكلّ مرّة يوصف لك المغضوب عليهم والضّالّين فماذا سيكون موقفك أنت؟ ماذا تعتبر مسلكهم؟ كبائر! ستعتبر مسلكهم على الأقلّ ذنبًا إلى أن تصل فتجده كبيرة.

تجربة ثانية لمعرفة كيف تأتي الكبائر في كتاب الله: الآية (٨٤) والآية (٨٥) من سورة البقرة:

نفس هذا الكلام الآن دعونا نراه في الآية (٨٤) والآية (٨٥) من سورة البقرة، ويكون هذا المثال الأخير، وأنت بعد ذلك فكّري بنفس الطّريقة:

انظري الآية (٨٤) والآية (٨٥):

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

دعونا نرى ذنبهم لأنّنا حين نقرأ هذه الآيات نتصوّر بأنّهم هم فقط! فإذًا ما هو ذنبهم الآن؟ ما هو ذنبهم بالتّفصيل؟ هم نُهوا عن مجموعة أشياء، وأُمروا بأشياء، نُهوا أن يسفكوا دماءهم، وأن يُخرج بعضهم

بعضًا من ديارهم، يعني كأنّه يُقال: لا تتقاتلوا مع بعضكم، ولا تهجّروا أحدًا منكم من داره،

هذا المنهي عنه؛ والمأمور به: إذا وجدوا أحدًا منهم أسيرًا عند أحد غيرهم يفادوه.

- إذًا المنهي عنه: قتالهم وإخراجهم من الدّيار.
- والمأمور به: الفداء.

فإذًا هم ماذا يفعلون؟ يقاتلوهم ويخرجوهم من ديارهم ثمّ بعد ذلك بعدما تنتهي الحرب ماذا يفعلون؟ يجدوهم أسرى يفادوهم.

لأنّ هذه الآيات تصف حالهم وهم في المدينة، في يثرب مع الأوس والخزرج، قبائل مع الأوس، وقبائل مع الخزرج، يعني اليهود صاروا مع العرب، ومكوّنين حزبين: فيتقاتل اليهودي مع اليهودي، يعني اليهودي الّذي في الحزب هذا مع اليهودي الّذي في الحزب هذا، يقاتلهم وهو منهي عنه القتال، بعد ذلك حين يصير أسيرًا فإنّه يفديه!

أنت الآن بعقلك تتصوّرين هذه المسألة؟! طيّب من الأصل لماذا تقاتله؟! أليس المنطق يقول: من الأصل لماذا تقاتله؟ ألاَ تأتمر بهذا الأمر وهذا الأمر!

الله -عزّ وجلّ- يقول: هذا ما هو إلّا ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وماذا تفعلون في البعض الآخر؟ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾!

إذًا الإيمان ببعض والكفر ببعض يجعل الإنسان يعمل عمليّتين متناقضتين! فمعنى هذا: أننا لو سألنا النّاس في حالتهم ما الّذي أوصلهم أنّهم يفدونهم من الأساس؟ كيف وصلوا أنّهم يحتاجون إلى الفداء؟ أنّهم في الأصل قاتلوهم، يعني هم قاتلوهم، ثم بعد ذلك وصلوا إلى أن يكونوا أسرى، وبعد ذلك جاء الفداء، فحين يأتون عند الفداء يؤمنون، وحين نأتي عند مبدأ المسألة يكفرون!

فكثيرا من الأحيان يأتي أهل الإسلام ويعالجون النّتائج وهم تاركون للأسباب! يعني هم يُدخلون أنفسهم في أسباب الباطل وبعد ذلك يخرجون فماذا يفعلون؟ يعالجون النتائج!

فيأتي مثلًا: أحد يخاف من التّحرّش، يخاف من كذا ويخاف من كذا، وهو في الأصل كان في غنًى عن هذا كلّه، بأن يحفظ عرضه بعيدًا عن مواطن التّحرش، فيذهب لعلاج التّحرش وهو في الأصل كان المطلوب منه أن يحفظ المسألة من أوّلها.

فمعنى ذلك: أنّ هذا المنهج الّذي هو منهج الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض! علاج النّتائج مع الدّخول في الأسباب إنّما هو من طريقة اليهود أن تدخل نفسك في السّبب! وبعد ذلك تبقى تعالج النتائج!

فأنت لا تدخل نفسك في السّبب:

مثال أوّل: أنّه نتيجة العادات العائليّة أنت تسمح أنّ أولاد الخالة وأولاد العمّة وبنات الخالة وبنات العمّة يجتمعون! تسمح لهم وتخالف الشّرع في ذلك؟!

مثال ثانٍ: النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: «الحَمْوُ المَوْتُ»[1] فتقول: (عندما دخلت عليهم كان هو ولدًا صغيرًا، وفتح عينه علينا) وتأتي تخالفِ الشّرع، وبعد ذلك حين تأتي المصائب، فنبدأ نعالج المصائب!

طيّب هو من البداية! لا تدخل نفسك في الأسباب من أجل أن تذهب لعلاج النّتائج!

تأتي تقول: (أنا سأطيع الله، فأفعل كذا وكذا في النّتائج)! لكن أنت أطِعِ الله من بداية الموضوع ولا تدخل نفسك في الأسباب!

على كلّ حال أيّ صورة من هذه الصّور اسمها ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾!

انظروا ما هو جزاءه؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وبعد ذلك؟ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

إذًا معنى ذلك كبيرة أم ليست كبيرة؟ كبيرة من كبائر الذّنوب: وهو أن تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٤).

في حالتهم هنا الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض ما هي صورته؟ أنّك تُنهى عن الأسباب، وتُحذّر من النّتائج.

ما تأتيك الفكرة إلّا حين تجد النّتائج! وقتما تجد النّتائج تبقى تعالج النّتائج! طيّب عالج الأسباب، عالج الأسباب من أجل أنّك مؤمن، الإيمان بكلّ الشّرع يجعلك تؤمن بالأسباب، بعلاج الأسباب وبعلاج النّتائج.

المقصد الآن من هذا الكلام: أنّه عندنا مشكلة: فقبل تحديد الكبائر علينا تحديد أنّه أصلًا ذمّ! يعني نحن ماذا ننتظر أن يُقال لنا في القرآن من أجل أن نعرف أنّه ذمّ؟ ماذا ننتظر؟ هل ننتظر آية صريحة تقول لنا: (هذه كبيرة! وهذا ذمّ!) هل هكذا يصلح؟ لا!

ولذلك يُقرأ القرآن كما يقول أهل العلم: "رُبّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه" لأنّ القرآن يقول فيه سبحانه وتعالى: لعن الله فيه كذا وكذا، وهو يقرأه وهو منفّذ لهذا! لكن كأنّ الكلام ليس له!

المقصد: أنّ أوّل شيء لابدّ أن نتّفق عليه: معرفة الذّنوب، أوّل ما تعرفين الذّنوب سوف تنتقلين مباشرةً إلى معرفة الكبائر.

أظهر طريقة في القرآن لمعرفة الذّنوب: هي وصفه -سبحانه وتعالى- لطريقة المغضوب عليهم، وطريقة الضّالّين، هذه أشهر طريق في القرآن، يعني الذّنوب تامّة الوضوح في وصف المغضوب عليهم والضّالّين.

ومعنى ذلك: كلّ مرة تقرئين اليهود يفعلون كذا، والنّصارى يفعلون كذا، مباشرةً ماذا تجتنبين الفعل!

الآن تجتنبين هذه مرحلة متقدّمة.

- أوّل شيء افهمِيها: هي بالنسبة لكِ كيف شكلها؟ كيف شكلها عندي؟ يعني كيف تظهر عندي؟
- وبعد ذلك تحوّلي إلى الاجتناب.

كلّ فعل فعله المغضوب عليهم أو الضّالّون في كتاب الله تأمّلِي فيه مليًّا إلى أن تتصوّري أين موقعنا منه وكيف نجتنب هذه الحال:

طبعًا هناك مثل مشهور جدًّا وهو سهل، أنا تحاشيته في البداية من أجل أن نعطي أنفسنا مجالًا أكبر:

هي سورة البقرة بنفسها سُمّيت سورة البقرة بسبب ماذا؟ بسبب قصّة البقرة، فإذًا هذه القصّة الّتي من بني إسرائيل أصحابها ماذا فعلوا؟ استسلموا؟ لا! بادروا؟ لا! إذًا ماذا فعلوا؟ لابدّ أن تأتوا بالكلمة المناسبة من أجل أنّ هذه الكلمة ستصبح كبيرة بحقّنا لو فعلناها!

الآن ما هو ضدّ الاستسلام؟ الدّين اسمه الاستسلام صحيح؟ يعني بمجرّد أن يأتيك الأمر ماذا ستفعل؟

تستسلم، لكن حين تُشاقّ الله ورسوله! تُشاقّه! يعني يُقال لك: هذا الطّريق، تقول: (لا! أنا لا أراه هذا الطّريقة، لا! من هنا! لا! دعينا نفعل كذا! لا! نفعل كذا!) مُشاقّة الله ورسوله! يعني بنو إسرائيل يعرض

عليهم موسى -عليه السّلام- الحقّ فيُشاقّوا، يأخذون شقًّا آخر! يذهبون جهة أخرى! ويسألون! ويسألون! ويشقّون على أنفسهم! يعني المشقّة جاءت من جهة كونهم شاقّوا الله ورسوله، وكان الصّحيح أنّهم يستسلمون.

وهذا صورته عندنا: أقنعني أنّ هذا الشّرع هكذا! أقنعني! أقنعني! وطالما أنت تقول: أقنعني! كلّما أتتك المشقّة أكثر، وصعُبت عليك التّقوى، وصعُب عليك تنفيذ الأمر، وكلّما ضاق صدرك أكثر، وكلّما كان بينك وبين الاستقامة مسافة أطول!

لولا فضل الله على بني إسرائيل فإنّهم ما كانوا ذبحوا البقرة وائْتَمَرُوا بالأمر، ولولا رحمة الله -عزّ وجلّ- بنا ما كنّا استقمنا على دينه، لكنّ الله -عزّ وجلّ- رؤوف رحيم بعباده، وكثيرًا ما يأتي الشّيطان ويظهر لك أنّه: (لا يوجد حكمة في هذا الفعل! لا يوجد حكمة من هذا! ما الفائدة من كذا؟) وهذا كلّه من مشاقة الله ورسوله وليس من الاستسلام! وهذا من أعظم الذّنوب الّتي ممكن أن تصل بالإنسان -والعياذُ بالله- إلى الخروج من دين الله!

المقصود من هذا النّقاش: أن نعرف كيف تأتي الكبائر في كتاب الله؟ معرفة الكبائر في كتاب الله تحتاج إلى كثير من الملاحظة. في المقابل أنّ الكبائر في سنّة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- شأنها أيسر، فالنّبي -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: أكبر الكبائر كذا، يعدّ هذه من الكبائر فتأتيكِ بصورة واضحة لكن القضيّة في كتاب الله.

فإذًا في كتاب الله كيف ستعرفِين بأنّ هذا ذنب؟ عن طريق ما وصف الله من حال للمغضوب عليهم والضّالين، فإنّ صفات وأحوال المغضوب عليهم والضّالين هذه الّتي في حقّنا تعتبر ذنوبًا وكبائر، وغالبًا ما يأتي وصفهم في كتاب الله إلّا بكبائر ما فعلوه، وليس بصغائر ما فعلوا، إنّما كبائر ما فعلوا! معنى ذلك: أنّ كلّ فعل فعلوه تتأمّلِين فيه! تتأملِين فيه! إلى أن تتصوّري نحن أين موقعنا منه؟ كيف أجتنب هذه الحال؟ يعني في قصّة البقرة كيف ستجتنبِين هذه الحال؟ كيف تجتنبِين حال المُشاقّة؟ بالمسارعة للاستسلام.

ولذا تأتي قصّة البقرة في سورة البقرة وبعد ذلك تُختم سورة البقرة ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1] إذًا هذا ضدّ هذا، فالّذي يستقيم على الطّريق؛ يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

هكذا انتهينا من توصيف الكبائر:

- عرفنا أنّ الكبائر تستلزم منك أوّلًا أن تعرفِي الذّنب.
- وبعد ذلك تنتقلِين من الذّنب إلى كون أنّه خُتم بنار، أو لعن، أو غضب، أو عذاب، مثلما مرّ معنا فعرفنا أنّه كبيرة.

سيأتي أيضًا من كلام ابن عبّاس، فنحن لازلنا في كلام ابن عباس الّذي نميّز به الكبائر.

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

حين قرأنا آية النّساء قلنا لابدّ أن نناقش ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: كيف أعرف أنّها كبيرة؟ يعني ضابطها.

الأمر الثّاني: ما معنى ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؟

الأمر الثّالث: ما معنى ﴿نُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾؟

فنحن لازلنا في الأولى الّتي هي كيف نعرف أنّها كبيرة؟

قال: (وله عنه قال) يعني الطّبري أيضًا نقل (عن ابن عبّاس قال: هي إلى سبع مائة أقرب منها إلى سبع)

وسبب هذا القول من ابن عبّاس أنّه ورد عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه عدَّ الكبائر بسبعة كبائر.

فقال ابن عبّاس في هذا القول: (هي إلى سبع مائة أقرب منها إلى سبع. ولعبد الرّزاق كلام: هي إلى سبعين أقرب منها إلى السّبع) ماذا يقصدون؟ يعني هل يقصدون أنّ عدَّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- عليه زيادة؟ أم يقصدون أن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حين عدَّ هذه الذّنوب إنّما عدَّ أصول الذّنوب؟ عدَّ أصول الذّنوب.

يعني أصول الكبائر سبعة وأعظمها هذه السّبعة، لكن ليس سبعة حدّها، إنّما أخبر عن أعظمها، عن أصولها.

ولذلك ابن عبّاس يقول: (أقرب إلى سبع مائة) يعني كأنّه يقول: (لا تفهموا حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- خطأ) وعبد الرّزّاق أيضًا يقول: (هي أقرب إلى السّبعين).

وهذا عند العرب أمر مفهوم، يعني حين يأتي رقم سبعة يُفهم منه أنّه عدد كبير.

حين تقول العرب: سبعة أو هذه فيه سبعًا وسبعين أو سبع مائة يقصدون أنّه عدد كبير؛ لأنهم عندهم السّبعة هي منتهى الأرقام، فالواحد مبتدأ الأرقام والسّبعة منتهى الأرقام.

الآن لن نذكر لماذا هي منتهى الأرقام وإنّما في فرصةً أخرى، لكن المهمّ أن تتصوّروا أنّهم يعتبرون الواحد مبدأ الأرقام والسّبعة منتهى الأرقام. فإذًا حين يأتون ويريدون أن يضاعفوا المسائل يقولون: (سبعة، سبع مائة، سبعين).

فمثلًا: حين يأتيك الحديث أنّه يُعدّ للنّبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه في المجلس الواحد يستغفر «أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[1] ماذا تفهمين؟ تفهمين أنّه عدد كبير:

⇐ سبعين هذا رمز للعدد الكثير.

⇐ سبع مائة رمز للعدد الكثير.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) متن الحديث: «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»

⇐ وسبعة رمز للعدد الكثير.

ابن عباس الآن سيضع ضابطًا مهمّا جدًّا لكيلا يحصل يأس: لأنّه حين يقول: (هي أقرب لسبع مائة) معناها أنّ الكبائر ستحيط بحياتنا، وهذا أكيد ستفهمِينه حين تقرئين القرآن على هذا الأساس: حين تقرئين في ذمّ اليهود أنّنا نشابههم في شيء، وتقرئين في ذمّ النّصارى أنّنا نشابههم في شيء، وتقرئين في ذمّ كلّ من ذُمَّ في القرآن أنّنا لابدّ أن نشابههم في شيء، ستجدِين المسألة محيطة بنا من كلّ جانب!

فإذًا هذا مباشرة يأتي لنا باليأس، وهذا اليأس هو أسوء علاقة بين العبد وربّه، وهو من أحرص ما يفعل الشّيطان مع ابن آدم، ولا تنسوا أنّ ظنونك في ربّ العالمين يوم القيامة ستظهر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾[1]

والله -عزّ وجلّ- يقول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]

فلا يوجد يأس أبدًا، أوّل ما يأتي اليأس لابدّ أن تدافعيه كلّ المدافعة.

لذلك ابن عبّاس ماذا يقول؟ (غير أنّه لا كبيرة مع الاستغفار) لا كبيرة مع الاستغفار، يعني حتّى لو زلّت قدم العبد ووقع في كبيرة، ونحن على قاعدة: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ» هذه القاعدة لا تنسوها، لكيلا

---

(١) العاديات: ٩_١٠.

(٢) فصلت: ٢٣.

يخطفكم الشّيطان بعيدًا عن باب الله، وخصوصًا في هذه الأيّام حيث النّاس كلّهم يغذّون بعضهم بالمثاليّة: (لابدّ أن تكون مثاليًّا)! فانتقلت هذه الصّورة الدّنيويّة من الدّنيا إلى الآخرة، فمثلما يريد النّاس أن يكونوا مثاليّين جدًّا في الدّنيا، ويفعلون كلّ شيء على المسطرة، يريدون أن يكونوا في علاقتهم مع ربّهم بنفس الطّريقة! وهذا لا يمكن أن يكون! لا يمكن أن يكون لأنّه لو صرت بهذه الطّريقة سيدخل لك مرض ثانٍ! سيدخل العُجب ويدخل الكبر وتدخل أمراض أخرى أخطر من التّقصير!

فمن أجل ذلك لابدّ أن تعرف أن صفة بني آدم أنّهم خطّاؤون، لكن هذه الصّفة ليست ممدوحة، الخطأ ليس ممدوح! مَن الممدوح في هذا إذًا؟ مَن يتوب مباشرة لأول ما يخطئ.

ولذلك: (غير أنّه لا كبيرة مع الاستغفار) يعني كأنّه يُقال: هذا الاسم يزول عن الذّنب إذا سارع العبد للاستغفار، هذا الاسم الّذي هو اسم ماذا؟ اسم كبيرة فإنّه يزول عن الذّنب إذا سارع الإنسان بالاستغفار؛ وفي مقابل الكبيرة ستكون هناك صغيرة.

وأيضًا هناك مرض آخر خطير، وهو: الاستهانة! وهو: الأمن من مكر الله! فماذا يقول ابن عباس؟ (ولا صغيرة مع الإصرار) وهذا الميزان من أحسن ما يزن الإنسان فيه حاله مع الخطأ، حين تريدين أن تزني حالك مع الخطأ فكّري فيما في قلبك وقت وقوع الذّنب واحسبي الصّغيرة والكبيرة بهذا المقياس.

- الإنسان خطَّاء تزلّ قدمه ويقع في كبيرة لكن إن ندم أشدّ النّدم وتاب واستغفر؛ زال عنه الإثم.

- الإنسان حريص على البعد عن الكبائر لكنّه مستهين بالصّغائر مُصرّ عليها، فلا تعتبر في حقّه صغيرة، ستصبح كبيرة!

- بل أحيانًا يزيد الأمر في قلب الإنسان فيُصرّ على الذّنوب ويستهين بها حتّى تُذهب الذّنوب بالإيمان! فيتحوّل من اسم المؤمن إلى اسم المنافق! بسبب ذهاب الإيمان! فهو أمر غاية في الخطورة!

دعونا نحسب الحسبة الآن ليس في الوقوع وإنّما في مسألة أخرى غير وقوع الذّنب: في عقد النّيّة على الذّنب: يعني الإنسان أحيانًا من جهله واغتراره وتلاعب الشّيطان به يقول لنفسه: (أنا سأتوب في شهر رمضان عن هذه الذّنوب، ولن أفعلها، وسأمتنع عنها) وهو عاقد العزم للمعاودة بعدها، فهذا من الاستهانة!

انظري كيف عقد إخوة يوسف العزم على قتل أخيهم مع النّيّة أن يَصْلُحُوا بعد قتله! فكلّ واحد يفعل هذا الفعل سيذوق من شقاء الذّنب ما ذاقه إخوة يوسف لأنّ أخوة يوسف طوال فترة غياب يوسف -عليه السّلام- كانوا في شقاء!

فالإنسان حين يوعد نفسه أو يوعده الشّيطان على الأصحّ فيقول له: (خذ حاجتك هذه من الذّنوب، وبعد ذلك تب واستغفر! خذ هذا القرض الرّبوي وبعد ذلك تب واستغفر! افعل كذا وكذا من الأخطاء ثمّ تب واستغفر!) فليعُلم أنّ هذا استهانة بربّ العالمين! وهذا أعظم من نفس الذّنب! لكن تزلّ قدم العبد يُخطئ، نفسه تغلبه هذا شأن آخر، يُقبل على التّوبة، لكن قبل الذّنب يقول لنفسه: (أدخل الذّنب وبعد ذلك أتوب) يعني يجعل التّوبة بابًا ليس لامتناعه عن الذّنب، إنّما بابًا لدخوله في الذّنب! يعني يقول لنفسه: (لك مخرج! ماذا تفعل؟ افعل الذنب وتمتّع! بعد ذلك اخرج من الذّنب بالتّوبة.) طبعًا هذا غالبًا لا يوفّق للتّوبة! غالبًا لا يوفّق! لا يوفّق! بمعنى لا ينشرح صدره للتّوبة، يذهب هذا الذّنب مع سيل من الذّنوب! لا يتذكّره ليتوب عنه! يُشغل أحيانًا بمصائب أكبر وأكبر فيخرج عن التّوبة! أحيانًا هذا الذّنب يمهّد له ذنوبًا تُذهب إيمانه!

فالخطر أن تعامل ربّ العالمين بمعاملة من لا يُعظّم الله! أخطر شيء في الذّنوب: أن تصدر عن استهانة في حقّ الله!

على كلّ حال فإنّ كلام ابن عباس واضح: (إلاّ أنّه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار)

وأيضًا أضفنا إلى هذا المعنى معنى: أن يدخل الإنسان الذّنب على نيّة أن يتوب، وهذا سيكون ذنبًا عظيمًا، سواء كان كبيرًا أم صغيرًا، سيكون ذنبًا عظيمًا، وهو ذنب الاستهانة بربّ العالمين، هذا ذنب عظيم

بنفسه غير الذّنب الّذي وقع فيه الإنسان. هكذا نكون انتهينا تقريبًا من الكلام حول معنى الكبائر.

معنى ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

ننتقل إلى ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ونرى ما معنى تكفير السّيّئة؟ يعني إذَا اجتنبت كبائر الذّنوب فإنّ الجزاء أن تُكفّر عنك سيّئتك. ما المقصود بالسّيّئة هنا؟ نبدأ بالمعنى الأوّل الواضح:

الآية تدلّك على أنّ الإنسان إذَا اجتنب الكبائر، ستبقى من سيّئاته الصّغائر. إذًا هذا الوعد الآن: إذَا اجتنبت الكبائر وبذلت جهدك وقاومتها ستُكفّر عنك سيّئاتك، السّيئات هنا ستُعتبر الصّغائر. هذا المعنى الأوّل.

هذا الجزاء لكي تشعري بقيمته لابدّ أن تتصوّري ما وَصَفَ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- به الصّغائر، يعني لابدّ أوّلًا أن تعظّمِي الصّغائر، ولا تصبح كلمة "صغائر" تصغّر لكِ الذّنب، بل هي صغائر أمام الكبائر. ولا تنسي كلام ابن عبّاس أنّه: (ولا صغيرة مع الإصرار) فكلمة **"صغيرة"** لا تستهِن بها، صغيرة بنفسها مصيبة.

والنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وهو المبعوث رحمةً للعالمين، يقرّب لنا الصّورة لكيلا نفقد اتّزاننا مع الصّغائر.

كما تعلمون قد وصف النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- الصّغائر بقوم نزلوا واديًا وأرادوا أن ينضجوا طعامهم فتفرّقوا في الوادي وكلّ واحد

جاء بعود صغير، يعني ليس حطبًا كبيرًا وإنّما عودًا صغيرًا، هذا أتى بعود، وهذا جاء بعود، وهذا جاء بعود، اجتمعت كلّها فأنضجوا طعامهم.

هذا التّشبيه سيشبه أنّ الذّنوب الصّغيرة تجتمع على الإنسان فتهلكه! عن أيّ ذنوب؟ هل هي ذنوب الكبائر؟ لا! وإنّما المقصود: الصغائر قد تتراكم وتتراكم ولا يوجد إحساس بها.

والله -عزّ وجلّ- لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها فمن رحمته بنا إذَا اجتنبنا الكبائر كفَّر -سبحانه وتعالى- بفضله ومنّته عنّا الصّغائر، فمُحي عن الإنسان الصّغائر الّتي ممكن أن تجتمع فتهلكه، ولا يوجد أحد يقدّر هذا الموقف إلّا إذَا أكثر في التّفكير في نتائج الصّغائر.

ما هي آثار الصّغائر؟

دعونا نعُدّ في لقائنا هذا على الأقلّ ثلاثة نتائج لاجتماع الصّغائر، خصوصًا أنّه سنستقبل إن شاء الله الأسبوع القادم صيام عشر من المحرّم:

العاشر من المحرّم: وهو يوم موعود فيه المؤمنين المتّقين بتكفير سنة ماضية.

فتكفير السّنة الماضية ما المقصود به؟ تكفير صغائرها، أمّا الكبائر فإنّما تُكفّر عن العبد إذَا تاب.

فمعنى ذلك: وأنت في شهر محرّم الشّهر المحرّم العظيم عند ربّ العالمين، ابتدئي قبل أن تصومي العاشر بالتّوبة، توبي من كبائر الذّنوب، من أجل أن تجدي هذا اليوم العظيم مكفّرًا لصغائرها، لكن من أجل أن نشعر بقيمة هذه النّعمة الّتي ستقبل علينا -الله يمتّعنا بذاك اليوم ويجعله مباركًا ويقبله منّا ومن المسلمين- لابدّ أن تعرفي أثر الصّغائر، وسنذكر للصّغائر الآن ثلاثة آثار:

١- الظّاهر في الحديث أنّ هذه الصّغائر لو اجتمعت على العبد أهلكته يعني يوم القيامة أهلكته بالجزاء فتكون هذه الصّغائر موجبة لدخوله النّار! بسبب اجتماعها.

٢- أنّ اجتماع الصّغائر يُهوّن ارتكاب الكبائر! وهذه بنفسها مشكلة: لأنّ الشّيطان من وسيلته مع الخلق أنّه لا يُدخلك مباشرة على الكبائر! أوّل شيء يعمل لك خطوات، فالخطوات هي الصّغائر، حتّى يوقعك في الكبائر!

ولذلك لا يزني الزّاني -الله يحفظنا ويحفظ أبناءنا- لا يزني الزّاني مرّةً واحدة! إنّما أوّل شيء يزني بالسّمع! ويزني بالبصر! ويزني بالتّفكير! ويزني..! -والعياذ بالله- إلى أن يصل إلى الوقوع في الجريمة! فهذه السّابقة كانت في حقّه خطوات! فيرى الإنسان نفسه يقول بعد قليل: (الحمد الله ما وقعت في الكبيرة! ما وقعت في الكبيرة!) وما دام يشعر أنّه مطمئنّا الشّيطان يسحبه رويدًا رويدًا! إلى درجة -الله يحفظنا ويحفظ أبناءنا- إلى درجة الوقوع في هذه الكبيرة! يعني وقت الوقوع لا

يفكّر الإنسان! لا يوجد أيّ شيء يسبّب له التّفكير أو الامتناع فيصبح مثل الآلة ينفّذ مثل الآلة!

والسّبب: أنّ الصّغائر أهلكته الآن! لكن هنا ما نوع الإهلاك؟ أوقعته في الكبائر.

٣- الأمر الثّالث أنّ هذه الصّغائر مع اجتماعها تُفقد الإنسان لذّة الطّاعة وتفقده الإقبال عليها! يعني الإقبال على الطّاعات يتأثّر جدًّا بالصّغائر إلى درجة أنّ الإنسان يضعُف إقباله على الطّاعة والإحساس بلذّة الطّاعة بسبب الصّغائر! ولذا كثيرًا ما يجد الإنسان نفسه يقرأ القرآن فلا ينشرح صدره! ويذكر الأذكار فلا ينشرح صدره! لأنّ هناك موانع من الصّغائر!

هكذا عرفنا ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ هنا بمعنى: الصّغائر.

فإذَا اجتنبت الكبائر فإنّها نعمة عظيمة أن يكفّر الله عنك سيّئاتك، يعني إذَا كفَّر الله عنك سيّئاتك معناها:

⇐ أنت محفوظ من أن تجتمع عليك السّيّئات.

⇐ أنت محفوظ من أن تجرّك السّيئات إلى الكبائر.

⇐ أنت محفوظ من أن تفقد لذّة الطّاعة.

كيف ننظر إلى الأيّام الفاضلة مثل يوم عاشوراء ويوم عرفة؟

حين ننظر إلى يوم عاشوراء، وقبله يوم عرفة، ننظر على أساس أنّه فرصة عظيمة، ونطلب في هذا الصّيام هذه الغاية.

صيام هذه الأيّام العظيمة لابدّ أن يصبح غاية تشتاق لها كأنّك تدخل فتغسل القلب من كلّ ما يقع عليه أو وقع عليه من ذنوب سبّبت له الاسوداد؛ ولذلك «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ»[1] فهذه سوداء وهذه سوداء اسودّ القلب! فأنت تعتبرِين يوم عاشوراء، ويوم عرفة بمنزلة الغسيل للقلب، من هذه الصّغائر.

طبعًا لأنّه كثرت الفلسفة علينا وواحد يقول لك: (صمت عرفة وكفّرت يوم سابق ويوم لاحق، نصوم عاشوراء لماذا؟ ألم تكفّر؟!)

نقول:

أوّلًا: هذا الواثق أنّ أعماله مقبولة مخطئ! لأنّ العبد يقضي كلّ حياته في رجاء القبول إلى أن يموت.

وانظري لأحد مثل عبد الله ابن عمر، علم على رأسه نار في الإيمان والتّقوى والصّلاح والعلم ومع ذلك يتصدّق وابنه سالم يجلس بجانبه فيقول له: «تقبّل الله منك يا أبتاه»[2] قال: لو أعلم أنّ الله تقبّل منّي

(١) صحيح مسلم _ كِتَابُ الْإِيمَانَ _ حديث رقم ٢٣٩

(٢) صفة الصّفوة _ عبد الله بن عمر بن الخطاب _ حديث رقم ٦٢ _ متن الحديث: «وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال جاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه اعطه دينارا فلما انصرف قال له ابنه تقبل الله منك يا ابتاه فقال لو علمت ان الله يقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إلي من الموت أتدري ممن يتقبل إنما يتقبل الله من المتقين.))

حسنة لتمنّيت الموت) يعني لو تقبّل منّي حسنة أريد لقاء ربّي انتهينا، لكن هو عايش كلّ هذا ينتظر أن يقبله الله، ينتظر أن يقبله الله.

ولذلك انظري كيف يزهّد النّاس بعضهم، تقول: (عمرة وحدة تكفي!) عمرة وحدة تكفي في العمر وبينك وبين الحرم ستين كيلو! من قال لك أصلًا إنّك قُبلت؟! من قال لك؟! تصرف لنفسك؟! مسألة القبول مشكلة كبيرة!

ثانيًا: إنّ العبد ينتفع من الطّاعة على قدر حضور قلبه! الله يعلم يوم عرفة ماذا كانت الحال؟! فالّذي نام! نام! والنّاس إجازة واستيقظوا قرب المغرب وقاموا وقالوا: (يوم عرفة يكفّر السّنة الماضية وسنة لاحقة)!

أنت تأخذ أجر الطّاعة على قدر حضور قلبك، نحن لنا رجاء في الله عظيم، لكن لا يمكن أن يكون شخص حضر قلبه في الطّاعة مثل آخر لا يدري ماذا يقول؟ وأنت ترين هذا أصلًا وأثره حين تقفين للصّلاة وأنتِ تعرفِين ماذا تقولِين فإنّك تخرجِين من الصّلاة مختلفة عن الّتي تصلّى ولا تدري ماذا قالت!

وهذا الأمر ليس له علاقة في كونك صمتِي أم لم تصومِي، أو صلّيتِ أم لم تصلّي، هذا له علاقة بدرجة انتفاعك من الطّاعة.

فمعنى ذلك حين نقدم على عاشوراء ماذا يجب أن يكون في قلوبنا؟ حرارة الخوف من الصّغائر، لابدّ أن يصير عندنا حرارة الخوف من الصّغائر! لأنّه ممكن أن يكون الإنسان ما دخل الكبائر أبدًا لكن هذه الصّغائر وحدها مكن تجتمع فتهلكه!

وذكّر نفسك:

- كم نقوم اللّيل ولا نجد تلك اللّذّة الّتي كنّا نجدها في نفوسنا؟!
- وكم نقرأ القرآن ونحن لم نجد قلوبنا في قراءة القرآن أو في الصّلاة؟!

فإذًا لابدّ أن تفهمِي بأنّ هذا بسبب الصّغائر! فأقبل على هذه الطّاعة الّتي هي صيام عاشوراء وأنت معظّم للصّغائر، راغبًا أن يكون ذاك اليوم يوم عمل عظيم وتقرّب إلى ربّ العالمين، بحيث يكون أجره أن يُغسل القلب غسلًا تامًّا، فيخرج أبيضًا من ذنوب السّنة الماضية.

وهذه من نعمة الله إنّ الله -عزّ وجلّ- يعلم ضعفنا وأنّنا لابدّ أن نخطئ، واستغفارنا ضعيف، وطاعاتنا ضعيفة لا ترقى لدرجة أن تمحو الذّنوب، فما نحن إلّا على باب الله.

الله يتقبّل منّا جميعًا، ويسّر لنا الصّيام وللمسلمين، ويجعله يومًا مباركًا، نعظّم فيه سُنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- نشكر فيه ربّ العالمين على إنجائه لموسى -عليه السّلام- ونعتقد أنّه يُنجي المؤمنين،

وينصرهم ولو بعد حين، يعني يوم عاشوراء يوم الأمل، يوم إحساسك أنّه مهما تكالبت الظّروف على أهل الإسلام، ورأيت ضعفهم ورأيت حال المسلمين، لابدّ أن تعرف أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

لا يقع في قلب الإنسان ولا قطرة يأس من روح الله إنّما يعبد الله -عزّ وجلّ- بالصّبر، وقد كان بنو إسرائيل محبوسين تحت سلطان فرعون الزّمن الطّويل فأخرجهم الله ذلك الخروج الّذي نصوم يوم عاشوراء شكرًا لله عليه.

كلّ هذا يربطنا بالأنبياء والمرسلين ويزيدنا عزّة بهذا الدّين، فنحن إلى إبراهيم وإلى إسماعيل وإلى يعقوب وإلى موسى -عليهم السّلام جميعًا- منتسبين، هذا الّذي يربطنا: الدّين، الإيمان والتّوحيد.

الله يقبلنا ويجعلنا من المسلمين، اللّهمّ آمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الثّالث

١٧ المحرّم ١٤٤٠هـ

أكبر الكبائر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكّلنا على الله، نعود لمناقشة موضوعنا، وهو الكبائر كما مرّ معنا سابقًا، ونحن نتدارس هذا الموضوع، نتذكّر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[١]

هذه الآية العظيمة وصفت حال الكُمَّل من عباد الله أنّهم ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

وتبيّن لنا في أوّل دراسة لنا، أنّ الكبائر هي ما ورد في كتاب الله، وسنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مختومةً -كما قال ابن جرير الّذي هو الطبري- : (كلّ ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب) هذا يكون من الكبائر.

إذًا معنى ذلك: أنّ الكبائر أتت في كتاب الله -عزّ وجلّ- موصوفة، وُصف العمل وترتّب عليه الجزاء، يعني أنّ صاحبه في النّار، أو أنّ صاحبه -والعياذ بالله- ملعون، أو أن صاحبه ينزل عليه غضب الله.

---

(١) النّجم: ٣٢.

أو هناك ضابط آخر: أنّ كلّ ذنب عليه حدّ، يعني الذّنوب الّتي فيها حدودًا تعتبر من الكبائر.

ومع ذلك فإنّ القاعدة: (أنّه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار).

وعرفنا أنّ هذه الكبائر كثيرة حتّى أنّ ابن عبّاس قد قال: (هي إلى السّبعمائة أقرب منها إلى السّبع) ويقصد بذلك: النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قد أخبر على أنّ الكبائر هي «السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»[1] ولم يكن يُقصد في هذا الحديث السّبع الموبقات عددها إنّما هي أكبرها، أعظمها وأشدّها.

سنبدأ الآن في باب أكبر الكبائر، طريقة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب في عقد أبوابه واضحة: يسمّي الباب ويُورد تحت اسم الباب آية أو حديثًا، هذه طريقته في جميع مصنّفاته.

فماذا سنفعل؟

- نناقش اسم الباب.
- ونناقش الدّليل الّذي استدلّ به على اسم الباب.

سنقرأ باب أكبر الكبائر:

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٦).

باب أكبر الكبائر

في الصّحيحين عن أبي بكرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؛ قلنا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: "أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ أَلاَ وَشَهَادَةَ الزُّورِ" فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ» (١) (٢)

نبدأ الآن بالنّظر إلى الدّليل، وبيان الفوائد من الدّليل.

أوّلًا: قال: (في الصّحيحين): يقصد به البخاري ومسلم.

(عن أبي بكرة رضي الله عنه): وهو من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

(قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» سنرى هذه الجملة كم هي مفيدة؟

الفائدة الأولى: هذه الجملة فيها دليل على مشروعيّة الاجتماع على تعلّم الكبائر؛ لأن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ابتدأهم وقال لهم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» هذه أوّل فائدة، معنى ذلك: أنّ تعلّم الكبائر إنّما هو من سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- نفس التّعلّم، أنّكِ تجلسِين من أجل أن تتعلّمي الكبائر؛ لأن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال لصحابته الكرام: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» يعني أُعلّمكم بأكبر

---

(١) تخريج الحديث من كتاب الكبائر: البخاري الشهادات (٢٥١١) ، مسلم الإيمان (٨٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٠١٩) ، أحمد (٣٧/٥) .

(٢) كتاب "الكبائر" للشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله _ باب الكبائر.

الكبائر، فالمفترض أن يهتمّ النّاس بتعلّم الكبائر، وأنّ الخطباء في المساجد يعتنون كلّ فترة ببيان الكبائر، وأنّ المربّين والمربّيات يعتنون بتعليم الشّباب والشّابّات الكبائر لأنّ التّقوى هي صفة أهل الإيمان، هذا هو السّبب، وإذَا لم يعرف العبد ماذا يتّقى، لم تحصل منه التّقوى.

فالتّقوى، بمعنى: أنّني سأجتنب ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1]؟ إذًا كيف سوف أجتنبها؟ أوّل الأمر: أتعلّمها.

إذًا عقد مجالس، وكتب، وخُطط للكبائر من سنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. إذًا هذه الفائدة الأولى من جملة «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»

الفائدة الثّانية: النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ» ولم يقل: ألا أعلمكم؟

دليل على أنّ المسألة عظيمة؛ لأن النّبأ غير الخبر، ما قال ألا أخبركم؟ قال «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ»، ومثلما تقرئين في سورة النّبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾[2] فالعرب لا تقول عن الخبر "نبأ" إلّا إذَا كان عظيمًا، فلمّا قال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ» يعني أنّه سيأتي بخبر عظيم.

---

(١) النّساء: ٣١.

(٢) النبأ: ١_٢.

الفائدة الثّالثة: كلمة «أَلاَ» هي للتّنبيه والتّحفيز على الاهتمام، «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ» «أَلاَ» يعني التفتوا لهذا الشّأن العظيم واهتمّوا به، فصار تعلّم الكبائر من الأشياء العظيمة الّتي تحتاج إلى تنبّه.

ولا تعيشِي الحياة وأنت تشعرِين أنّك لستِ بحاجة إلى أن تعرفِي الكبائر؛ لأنك لو سألتِ الآن عن أسباب المُدخل الكريم يوم القيامة: ما هي أسباب المدخل الكريم، يعني إلى جنّات النّعيم؟ فمن أسباب أن يدخل الإنسان مُدخلًا كريمًا يوم القيامة أن يجتنب الكبائر، كما في آية النّساء ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني الآن لو أسألك: قصّة يوسف -عليه السّلام- ستكون نموذجًا لأيّ شيء؟ لاجتناب الكبائر.

فتصوّرِي مقام يوسف -عليه السّلام- ارتفع بسبب أنّه اجتنب الكبيرة، يعني الآن حين يوصف فإنّه لا يوصف أوّلًا بعمله الصّالحات وإنّما يوصف أوّلًا -عليه السّلام- باجتنابه للكبائر.

ثمّ إنّ الثّلاثة الّذين أُطبق عليهم الغار، واحد منهم كان عمله الصّالح: اجتناب الكبيرة.

فلا تتصوّري أنّه: (لا! أنا ماشية في طريقي أعمل الصّالحات)

نقول: من أعظم الأعمال الصّالحات: اجتناب الكبائر.

أنتِ تقولين: (الحمد الله أنا عندي الكثير من الأعمال الصّالحة لأنّني الحمد الله لا أقع في الكبائر)

نقول: اجتناب الكبائر هذه الكلمة معناها: أنّ الكبائر تواجهك وأنت تجتنبها، فمتى ستكتب هذه لك أنّها حسنة؟ متى ستكون سببًا للمدخل الكريم؟ حين تواجهك، يعني حين تكون في بيئة للغيبة مثلًا، وتجتنبها لا تذهب إليهم! إذَا اغتابوا لا تتكلّم معهم! أو تخرج وتتركهم! لأنّ الغيبة من الكبائر، إذًا هذه الحالة سيكون اجتنابك للكبائر عملًا صالحًا.

لكن أنت أصلًا ما عندك أحد تجتنبه! ما عندك أحد يغتاب! هذا افتراض خيالي: أنّه ما عندك أحد يغتاب! ولا تذهبي إلى مجلس فيه غيبة! نفترض أن هذا يصير معناها أنّه ما عندك فرصة لاجتناب الكبيرة.

فأنت مثلًا: امرأة عفيفة بعيدة طاهرة بعيدة عن الاحتكاك تمامًا بالرّجال -الحمد الله- وربّنا قد أكرمك وخدرةٌ في بيتك، ليس عندك هذه المشكلة الّتي هي مشكلة اجتناب الكبائر من باب الفحشاء، والحمد الله ربّ العالمين هذه بنفسها نعمة يُحمد الله -عزّ وجلّ- عليها، لكن ممكن يكون مثلًا: عقوق الوالدين موجود، يمكن أن تتعرّضِي له.

المهمّ أن نفهم متى سيكون اجتناب الكبائر عملًا صالحًا؟ حين تواجه الكبيرة فتجتنبها.

إذًا معنى ذلك: أنّه من الأعمال الصّالحة الّتي يتقرّب بها النّاس إلى ربّ العالمين أن يجتنبوا الكبائر؛ فلذلك لابدّ أن يكون في اجتنابها نيّة، بمعنى أنّ الإنسان لو تعرّض -الله يحفظنا وشبابنا والمسلمين- لمسألة تتّصل مثلًا بالمسكرات، بالمخدّرات فإنّه لابدّ أن يجتنبها بنيّة تقوى الله، لا يقل: (أريد الحفاظ على صحّتي)! وإنّما لابدّ أن يكون بنيّة تقوى الله لأنّها عمل صالح، عمل صالح يستلزم النيّة الصّالحة.

المهمّ أنّنا هكذا وصلنا أنّ الاهتمام بالكبائر سببه أنّه من الأعمال الصّالحة، ومن أجل أن تذكّري نفسك بذلك: تذكّري يوسف -عليه السّلام- وتذكّرِي الجماعة الّذين انطبق عليهم الغار، ستعرفِين كيف أنّه عمل صالح.

إذًا نحن لازلنا في جملة «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» استفدنا من الجملة كلّها:

الفائدة الأولى: أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- يعلّم الكبائر، إذًا نحن يجب علينا أن نعقد مجالسًا وخطبًا في التّربية نتكلّم فيها عن الكبائر.

الفائدة الثّانية: «أُنَبِّئُكُمْ» دليل على أنّه خبر عظيم.

الفائدة الثّالثة: «أَلاَ» للتّنبيه دليل على أنّ الإنسان يجب أن يستعدّ ويتنبّه لهذا الشّأن العظيم.

الفائدة الرّابعة: هناك كبائر وهناك صغائر.

نأتي الآن إلى «أَكْبَرِ الكَبَائِرِ» معناها عندنا شيئين:

أوّلًا: عندنا كبائر.

ثانيًا: سيقابل الكبائر، الصّغائر.

ونحن مرّ معنا ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ في الآية، وأنّها فيها قولين:

- أنّ اللّمم شيء آخر غير الصّغائر.
- وهناك قول أنّ ﴿اللَّمَمَ﴾ هو الصّغائر، وهذا الظّاهر: أنّ ﴿اللَّمَمَ﴾ هو الصّغائر.

إذًا معناه أنّ هناك كبائر وهناك صغائر. من أين عرفتِ أنّ هناك صغائر وهناك كبائر؟

أنتِ عرفتِ من الحديث «أَكْبَرِ الكَبَائِرِ» يعني الحديث نصَّ على الكبائر.

والآيتين: النّساء (٣١) ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾

والنّجم (٣٢) ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

فإذًا عرفتِ بأنّ هناك كبائر، القَسِيمُ المنطقي للكبائر الّذي سيقابله مباشرةً: الصّغائر، هكذا عرفنا أنّ الكبائر جاءت في لفظ الحديث، والصّغائر ستكون هي القَسِيمُ المنطقيّ للكبائر. هذا الأمر الأوّل.

الفائدة الخامسة: أنّ الذّنب ممكن أن يكون كبيرًا وبعد ذلك يصبح أكبر الكبائر لأنّه أتى في زمن عظيم أو في مكان عظيم أو متلبّس بعبادة.

حين قيل: «أَكْبَرِ الكَبَائِرِ» عرفتِ أنّ هناك كبائر، وهناك أكبر الكبائر، يعني حتّى الكبائر فيها أكبر.

إذًا الذّنوب فيها كبائر وصغائر، والكبائر فيها كبائر وأكبر الكبائر، وكلّ هذا التّدرّج إشارةً إلى أنّ الآثام تعظم وتصبح عظيمة بأسباب:

- إمّا أن تكون هي بنفسها عظيمة.
- أو أن يكون مع الإثم أسباب محيطة به تتسبّب في أن يصبح الإثم عظيمًا.

فمثلًا: في هذا الشّهر المحرّم، الّذي هو أحد الأشهر الحُرم الأربعة يُعظَّم الذّنب، يعني الذّنب الّذي نقترفه في هذا الشّهر ليس مثل الذّنب الّذي نقترفه في صفر، والسّبب؟ السّبب: الزّمان، والنّاس عندهم الأيّام سواء!

وأيضًا: لو ابتلي الإنسان ولم يعرف الأشهر الهجريّة، سوف يصبح البلاء مضاعفًا لأنّه لا يهتمّ! لا يسمع ذي القعدة، ولا ذي الحجّة، ولا

محرّم، ولا رجب، فنحن نسمع أسماء الأشهر الهجريّة والقلب لم يجيَ أيضًا على حُرمة هذه الأشهر! فكيف لو غابت هذه الكلمات العظيمة في تسمية الأشهر؟

فالشّاهد:

- أنّ الذّنب ممكن أن يكون كبيرًا وبعد ذلك يصبح أكبر الكبائر لأنّه أتى في زمن محرّم.
- أو أنّه يذهب إلى الحَرَمِ ويذنب فيصبح في مكان عظيم! فماذا يحصل للذّنب؟ يصير أكبر.

يعني هو كبيرة وبسبب أنّه في مكان عظيم أو في زمان عظيم فإنّه يصبح أكبر.

فالمقصد: أنّ هناك كبائر وهناك أكبر الكبائر.

لماذا هناك «أَكْبَرِ الكَبَائِرِ»؟

- لأنّها هي بنفسها أعظم.
- أو لأنّها أحاط بها أسباب جعلتها أعظم.

مثل: أن يكون هناك زمان فاضل أو مكان فاضل أو العبد متلبّس بعبادة:

(متلبّس بعبادة) يعني: متلبّس بعبادة ويغتاب، تَصَوَّرِيهِ الآن خارج من جدّة وذهب ليأخذ عمرة، في الطّريق يتكلّمون عن النّاس ويغتابون

مثلًا، فيصير كونه متلبّسًا بعبادة حتّى لو كان لا زال في جدّة ولم يدخل مكّة، كونه مُحْرِمًا فقد حرَّم على نفسه لبس المخيط بالنّسبة للرّجال، وحرّمَوا على أنفسهم التّعطُر، وما إلى ذلك ممّا يُعتبر من المحرّمات لأنّ الإحرام يدخل في هذه المحرّمات، وفي المقابل دخل في الكبيرة! فأصبح هناك أسبابًا تجعل الكبيرة أكبر إمّا بذاتها كما سيُنصّ في الحديث، وإمّا بأشياء محيطة بها.

وهناك أيضًا مسألة تكون أدقّ وأدقّ لكن يكفينا الآن هذا النّقاش وكلّ مرّة نزيد قليلًا من أجل أن نتصوّر كيف أنّ الكبيرة تصير أكبر؟

فإذًا هكذا اتّفقنا على ثلاثة تقسيمات للذّنوب:

١. صغيرة.

٢. كبيرة.

٣. أكبر الكبائر.

وعرفنا أنّ هناك أسباب لكي تكون أكبر الكبائر.

ذكرنا الآن خمس فوائد من قوله: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»

وهذا الكلام النّبوي لابدّ أن تتصوّريه حيث أنّك تجدِين جملة مختصرة من كلام الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وهي مليئة بالمعاني، فكلّما ازداد الإنسان علمًا ازداد ثقةً في أنّ هذا الدّين الّذي شهد له ربّ العالمين، قد أرسل الرّسول الأمين به وقد أبلغه لنا وحفظه، سواء كان الكتاب محفوظًا أو سنقول أيضًا: السّنّة من الدّين وقد حفظها الله.

أسأل الله -عزّ وجلّ- أن يجعلنا خير من يحمل هذا الدّين المحفوظ؛ لأن هذا ميراث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وإذا لم نورّثه نحن لأبنائنا انقطع الميراث، لكن نحن متأكّدون أنّه إذا انقطع الميراث من جهة بقي الميراث من جهة أخرى، فليس محرومًا إلّا الّذي انقطع من جهته الميراث! وإلّا فإنّ هذا الميراث سيبقى، وهذه السّنّة الكريمة ستبقى محفوظة، ستبقى على مدى الزّمان، إلى أن تقوم السّاعة، لكنّه قد يُقطع هذا الميراث من نسل ويوصل لنسل! نسأل الله ألّا نكون سببًا لقطع هذا الميراث عمّن هم بعدنا، الله يُعيذنا من أن نكون شرًّا على من هم بعدنا.

فإذًا قلنا: قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قلنا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ» هذه الجملة كلّها على بعضها ترشدك إلى أدب بين المعلّم والمتعلّم، يعني النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يَعْلَمُ عن صحابته الكرام الحرص الشّديد على التّعلّم، فلذَا ابتدأهم بأن قال لهم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ» يعني نبّههم لهذا الأمر: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» لأنّهم حريصون فإنّه عرض عليهم الشّأن ولم يبدأهم بالكلام.

لكن لو تتصوّرين بأنّ هناك أحدًا غير حريص فإنّك تقولين له: (ما رأيك أن أقول لك أكبر الكبائر؟) ماذا يردُّ؟ يقول لك: (لا أريد أن أعرف!) بكلّ سهولة! لأنّه لا يوجد في نفسه حرص!

لكنّ الرّسول الكريم كما اصطفاه الله فإنّه اصطفى له هؤلاء الصّحابة الكرام، فكان بين المعلّم والمتعلّمين هذا الأدب، قال «أَلاَ

أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قلنا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ» طبعًا فيها ما فيها من الأدب مع الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- لكنّنا نريد الوصول إلى مقصدنا الآن:

قال -صلّى الله عليه وسلّم- لهم: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ» تصوّري هذه الجلسة الجميلة الّتي تجمع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بصحابته الكرام، وكيف أنّه هو في حالة من الجلوس الهادئ معهم، والخبر منه -صلّى الله عليه وسلّم- وهو متّكئ مجتمع مع أصحابه في حالة من الرّخاء، جلسة رخاء متّكئًا فيها، طبعًا هذا يدلّ على: أنّه يصحّ التّحديث متّكئًا وليس عيبًا.

لكن انظري كيف كان اجتماع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مع أصحابه؟ يجتمع معهم متّكئًا، مرتاحًا، ولا يتكلّمون إلّا حقًّا، يعني حتّى في حالة الرّخاء لا يتكلّمون إلّا حقًّا.

الشّاهد: أنّه لم يُنقل لنا أنّه كان متّكئًا إلّا بسبب ما حصل بعد ذلك، الأمر العظيم الّذي جاء جعل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يغيّر جلسته.

قبل أن نصل إلى هذا دعونا نقف عند الجمل:

بدأ بأوّل وأعظم كبيرة وهي: أكبر الكبائر، وهي:

«الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ»

وهنا دائمًا تحصل مشكلة في تسمية الأشياء: فنحن نفهم بأنّ الكبيرة ذنب، وواضح لنا بأنّ الشّرك فوق الذّنوب، بينما الشّرك ذنب من الذّنوب فالشّرك أحد أعظم ذنوب بني آدم.

فماذا يكون الشّرك؟ يكون ذنبًا لكنّه الذّنب الّذي لا يغفره الله؛ لذلك سيكون هناك فرق بين الإشراك وبين العقوق. فإذًا اتّفقنا على أنّ الإشراك بالله ذنب.

وبعد ذلك تقولين: (ما حالة الذّنب في التّقدير: هل كبيرة؟ أم أكبر الكبائر؟ أم صغيرة؟) فإذًا عرفتِ بأنّه: أكبر الكبائر.

وكذلك له أيضًا صفة ليست لشيء آخر من الذّنوب غيره: أنّه ذنب لا يُغفر.

هل يعني أنّه لا يُغفر حتّى لو تاب صاحبه؟! لا! فنحن نقول: لا يُغفر إذا مات وهو عليه.

معناها: أنّ عقوق الوالدين وشهادة الزّور ممكن أن يغفر لو مات وهو عليه والأمر فيه تفصيل لكن الجملة العامّة: تقولين: (يدخل في رحمة الله) والخاصّة: ستأتينا كلّ مرّة إضافة عليها.

إذًا ما هو الفرق بين: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»؟ أوّلًا: ما هو المشترك؟ وما هو الفرق؟

نأتي للاشتراك:

- أنّ كلاهما ذنب.
- وأيضًا يُعتبران من أكبر الكبائر.

ما هو الفرق؟

- أنّ الإشراك وحده لا يُغفر إذا مات صاحبه وهو عليه لم يتب منه.

لكن انظري كلمة واحدة لا تنسيها أبدًا: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[1] أيّ ذنب تتصوّرينه إذا تاب صاحبه تاب الله عليه ما دام لم يغرغر، فضعي هذه القاعدة ومرّريها على كلّ شيء، ولا تأتي كلّ مرة تسألين فيها نفسك: (هذا لو تاب؟) لا يوجد لو تاب! فمجرّد كونه تاب: «يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» هذه بمثابة القاعدة، وبذلك لا تُشكل علينا هذه المسألة أبدًا.

انتهينا الآن من الإشراك بالله من جهة مقارنته بعقوق الوالدين.

ما هي أنواع الشّرك بالله؟

سنأتي فقط ونقول بعضًا من الجمل المفيدة في الإشراك لأنّه إذَا أردنا النّقاش في الإشراك سينتهي الفصل الدّراسي، فلا يوجد إلّا أن نقول جملة مفيدة ونُحيلكم على الكتب، يعني من أجل أن تفصّلوا وتتبيّن لكم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١).

الآن الإشراك بالله له نوعان مشهوران:

١) الشّرك الأكبر.

٢) الشّرك الأصغر.

الشّرك الأكبر سيتّصل بالعبادات: فيأتي الإنسان إلى عبادة لله ويصرفها لغير الله، يعني يعبد الله بهذه العبادة ويعبد غير الله بهذه العبادة.

إذًا ما هو الشّرك الأكبر؟ وحول ماذا يدور الشّرك الأكبر؟ أوّل شيء يبدأ من العبادات، يعني ظهور الشّرك الأكبر في توحيد الألوهيّة يكون واضحًا.

يأتي للعبادة الّتي هي من المفترض أن تكون خالصة لله، ماذا يفعل بها؟ يصرفها لغير الله، يعبد الله بها، ويعبد غير الله بها.

من أشهر الأمثلة على ذلك: الذّبح، هذا مثال سهل جدًّا.

الذّبح حين يصير عبادة غير حين نذبح لبيوتنا أو نذبح لضيفنا، حين تذبح لضيفك المطلوب منك أن تقول: بسم الله، وتذبح بالطّريقة الشّرعيّة والآداب الشّرعيّة.

اتركي هذا، ودعينا نفكّر عندما يذبح النّاس ذبح عبادة مثل الأضحية أقرب شيء:

يأتي الحجّ فيدخل في النّسك، يعني يدخل في العشرة أيّام كما هو معلوم ويذبح لله، ثمّ يأتي ويذبح للقبر لصاحب القبر تقرّبًا! تقرّبًا إلى من؟

هناك حالتان هنا الآن:

الحالة الأولى: مرّة يذبح عند القبر تقرّبًا إلى الله.

الحالة الثّانية: ومرّة يذبح لصاحب القبر تقرّبًا إليه.

فإذًا أين سيكون الأكبر؟ عند صاحب القبر.

انظري كيف يذبح ليتقرّب لله في الأضحية! وبعد ذلك يذهب لصاحب القبر ويذبح ليتقرّب إلى صاحب القبر! إذًا عمل عمليّة إشراك بين التّقرب بالذّبح لله والتّقرب بالذّبح لغير الله! الّذي هو مَنْ غير الله؟ صاحب القبر.

فأنت لا تتصوّري بأنّ الإشراك سيكون في الصّلاة، في الصّيام، هذا عادةً لا يكون موجودًا، لكن في العبادات الّتي يخفى على النّاس أنّها حقّ خالص لله، فيأتي لعبادة مثل الذّبح، أصلًا يغيب عن باله وهو يذبح أنّه من المفترض ألّا يذبح إلّا لله فيذبح لغير الله!

هذا فاهم أنّه ذاهب للذّبح عند القبر، لكن الّذي أسوأ من هذا! أنك لا تعرفين كيف تعظينه! ويدخل فيه الشّرك وهو غير ملاحظ لدخوله: أن يأتي مثلًا ويوهمونه أنّ هذا مرضه بسبب كذا وكذا من الأمور الرّوحية! وبعد ذلك يخبرونه أنّه من أجل أن يشفى: (اذبح ديكًا

أسودًا قبل صلاة الفجر)! فيقول: (أنا سأذبح ديكًا أسود قبل صلاة الفجر وأقول أيضًا: بسم الله)! لكن هل ستنفعه هذه المسألة؟ لا! فهو لا يفهم أنّ هذه الطّقوس إنّما هي تقرّب إلى الشّيطان، فيدخل في الشّرك من باب لا يدركه!

طبعًا هو موضوع طويل لا يمكن الانتهاء منه بهذه السّهولة، وكلّ مرة تظهر فيه نازلة جديدة، وصورة جديدة من صور الشّرك! فقبل الآن كان الكهنة والسّحرة مختبئين في الكهوف في الأماكن الظّلماء! اليوم الكهنة والسّحرة عندهم بريد إلكترونيّ! وعندهم مواقع! وعندهم كلّ وسائل الاتّصال! فالّذي كان سابقًا يظهر بمظهر يجعلك أنت أصلًا تخافين منه فإنّه اليوم يأتيكِ بألمع ما يكون من صورة.

المهمّ فإنّ التّوحيد جوهرة قلب المؤمن فليرعاها وليحفظها، يعني جوهرة قلبك أنّك أنت موحّد لأنّ الله قال في الحديث القدسيّ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1] فقط تعالَ بالتّوحيد! فقط تعالَ بالتّوحيد! ومهما كان عندك من الذّنوب والكبائر فإنّ الله -عزّ وجلّ- يأتيك «بِقُرَابِ الأَرْضِ» الّذي أتيت مثلها ذنوبًا يأتيك بها مغفرة، فطريقك إلى الله أن تكون موحّدًا، فالتّوحيد جوهر قلب المؤمن، لابدّ أن تعرف أنّ جوهر قلبك هو التّوحيد.

---

(١) رواه التّرمذي (٣٦١٧).

فكونك تضحّين بتوحيدك بأقلّ ما يكون، ويُقال لك: (البسي هذه سوف تفعل بك كذا! والبسي هذه في معصمك ستفعل لك كذا! كلّ هذه الأمور الّتي لا تعرفين لها أصلًا حتّى لو أردت أن تتبيّن لك، ففي بداية الأمر لا تسمعي ولا تطيعي! اصبري لحين يتبيّن لك الأمر مثل الشّمس، وتتأكّدي أنّ هذا الشّيء ليس له علاقة بأيّ شيء يقدح في عقيدتك ثمّ بعد ذلك ادخلي فيه. لكن لا تُغامري بهذه الجوهرة، لا تُغامري لأنّها إذا انكسرت قلّ أن يستطيع الإنسان إصلاحها! نحن لا نيأس من روح الله، مغفرة الله تَسَعُ كلّ شيء ورحمته وسعت كلّ شيء، لكن المشكلة حين يكسرها الإنسان وهو لا يشعر! لا يظهر له الحق فيدخل في إشكالات كثيرة!

وهم لا يأتونك بوضوح أهل الشّرك والماكرين! وأكبرهم الشّيطان الرّجيم فإنّه لا يأتيك بوضوح، بحيث أنّه يضع عنوان كذا على المسألة ويقول لك: هذا شرك! فتقول: (أنا لا أريد الذّهاب إلى الشّرك)! لا! ليس بهذه الطريقة! إنّما يخدعك بحيث أنّك تشعر بأنّ هذا لا يخالف توحيدك ولا يخالف دينك! فلا تُغامر بما تملك من إيمان! فنحن نسأل الله أن يستر علينا ويحفظ علينا إيماننا فلا نذهب ونُغامر به! فإنّها مشكلة كبيرة!

ولاحظوا كيف أنّهم يأتون إلى النّاس من أبواب لا تمرّ على الخاطر! ولا تنسوا أنّ الشّيطان سيخطب في أهل النّار ويقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ

عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾[1]

فأنت من أجل ألّا تكون من أهل هذا الخطاب والنّداء، لابدّ أن تكون محافظًا على التّوحيد أصلًا واضح أمام عينيك أنّه: أهمّ شيء توحيدي، أهمّ من أيّ مغامرة أو أيّ أمر أجرّبه! وكثير من الأمور أصلًا يدخلها النّاس تجربة، ثمّ حين يخرجون منها يقولون: (هؤلاء كذّابون)! لكن لا يشعرون أنّه لابدّ أن يتوبوا إلى الله كونهم غامروا بتوحيدهم.

على كلّ حال: فإنّ الشّرك الأكبر من أخطر الأشياء الّتي تحيط بنا، وأيّ أحد يعتقد أنّه سالم منه، يكون قد أوهمه الشّيطان، الشّرك أقرب إلى شراك نَعلنا، كما وصف لنا النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»[2]

والسّبب: أنّ الشّرك أقرب ما يكون، والتّوحيد أيسر ما يكون.

الشّرك الأكبر هذا قضيّته قضيّة! لابدّ في كل مرّة أن ننبّه أنفسنا عليه، لكن يأتي كذلك الأخطر وهو: الشّرك الأصغر. الشرك الأكبر خطير لأنّ مجرد الدّخول فيه يحرُم على الإنسان الجنّة إن مات وهو عليه، هذه خطورة الشّرك الأكبر. لكن الشّرك الأصغر ما هي مشكلته؟ فلا تشعروا بأنّه أصغر يعني بسيط! وإنّما الشّرك الأصغر أكبر من أكبر الكبائر!

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٥٠).

فالآن أليس في الحديث «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ.. الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»؟ معناه الإشراك بالله الأكبر، والإشراك بالله الأصغر، انظري فهو: بالتّرتيب، فلو أتيتِ وقارنت بين الشّرك الأصغر وبين عقوق الوالدين، في الأصل من سيكون أكبر؟ الشّرك الأصغر سيكون أكبر من عقوق الوالدين كون أنّ الشّرك الأصغر أكبر من أكبر الكبائر!

تعالوا نرى الآن الشّرك الأصغر وكيف خاف النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على أصحابه منه وهم الصّحابة الكرام؟! وقد أخبر: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ»[1] يعني هذه أحد صوره، فالرّياء أحد الصّور، وهو قريب جدًّا.

دعونا نأخذ **الرّياء** من أجل أن نقارن بينه وبين **الأكبر**، الآن الرّياء ليس مثل أن يتوجّه الإنسان بالعبادة لغير الله، لكن المقصد أنّه هو يعبد الله، ويريد ثناء النّاس على عبادته لله، يصلّي ويريد أن تثني عليه النّاس من أجل عبادته لله، يعني هو يعبد الله ولا يعبد غير الله، ليس مثل ذاك الّذي يطوف حول القبر! أو يذبح للقبر! فهو يعبد الله ولا يفكّر في عبادة غير الله أبدًا، ولا يرى غير الله عظيمًا، لكن يعبد الله ويريد ثناء النّاس على عبادة الله!

---

(١) أخرجه أحمد ابن حنبل (٢٣١٠٣).

والمؤمن الموحّد يعبد الله ويريد ثناء الله على عبادته، ثمّ إذا أثنى عليه الله ألقى محبّته في الأرض، ألقى محبّة العبد في الأرض، فهذا شأن من عند الله فلا يقصد العبد أن يعبد من أجل أن يحبّه النّاس.

الشّرك الأصغر مثاله السّهل الرّياء: يعني سهلًا في فهمه وليس في الحياة، فإنّه في الواقع يقع الإنسان بسرعة في الشّرك الأصغر الّذي هو الرّياء لكنّ تمييزه يكون واضحًا.

المشكلة في تمييز الشّرك الأصغر الّذي من الأنواع الأخرى مثل: أن يلبس التّميمة! أو يلبس الحلقة ويعتبرها سببًا للشّفاء! مثلما مرّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على الرّجل وكان يلبس حلقة من صِفر، يعني من النّحاس، فقال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- له: «وَيْحَكَ مَا هَذِهِ؟ قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ؟» يعني يقصد بذلك المرض، مرض الواهنة «قَالَ: أَمَا إِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا انْبِذْهَا عَنْكَ؛ فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»[1].

المقصد الآن أن لبس حلقة مثلما يلبس النّاس الأساور الّتي يعتقدون أنّها سبب تنفعهم! فمن اعتقد أنّ سببًا ينفعه والله لم يجعله سببًا سيكون دخل في الشّرك الأصغر.

سأعيد عليكم، مثل هذه المسائل لا تُشرح بالإجمال فلابدّ أن تُشرح بالتّفصيل، لكن كلّ الّذي ترونه حولكم من الأنواع المتجدّدة من الشّرك: مثل الطّاقة وما يتّصل بها! فكل هذا أنواع من الشّرك الأصغر

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٢٤).

تُعْرَضُ بطرق مختلفة! يأتي يقول لكِ: (البسِي هذه القلادة فيها حجر كريم إذا أراد أحد أن يصيبك بعين فإنّ الحجر يرُدّ!) وانتهى الموضوع! فلا تقرئي المعوّذات! ولا تتعبي نفسك!

هذا شرك أم ليس شركًا؟! طبعًا شرك! لكن هم لا يقولون لكِ هكذا! فإنّهم لو يقولون لك هكذا فأنت ستستوعبين لكن هم يقولون لك: (يسحبِ الطّاقة السّلبية! ويأتي بالطّاقة الإيجابيّة)! يعني تُسمّى الأشياء بغير أسمائها فيُخدع النّاس!

ومن أجل ذلك كلّ شيء لا تفهمه بوضوح، لا نقول لك احكم عليه وإنّما نقول: لا تتعرّض له فتكسر الجوهرة الّتي في قلبك!

وأنتِ تصوّري المسألة بهذه الطّريقة: أنّ في يدك جوهرة، وتمشين ولا تريدين الدّخول في أيّ زحام، ولا في أيّ مكان من أجل ألّا يدفعك أحد فتُكسر الجوهرة.

بهذه الطّريقة تصوّري المسألة، يعني حافظي عليها وطوال الوقت الزمي الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[1]

لابدّ أن نكون خائفين وليسوا متهوّرين، فالّذي يشعر أنّ في يده جوهرة ويريد أن يحافظ عليها إلى أن يصل وينجو، غير الّذي يشعر أنّ

(١) آل عمران: ٨.

يده فارغة! ويمشي ويتعجّل! ويتهوّر! وكلّما فتح أيّ أحد بابًا فإنّه يدخله ويلج إليه! بعد ذلك ماذا سيحصل؟ سيذهب إيمان النّاس -الله يعيذنا!

ومرّةً أخرى أؤكّد عليكم أنّه لن يكفينا في هذه العُجالة ولا مثلها ١٠٠ لقاء في شرح **الشّرك** من كثرة تشعّبه وخطورته.

وفي القرآن أتت النّصوص الكثيرة الّتي تأمر بالتّوحيد وتنهى عن الشّرك وتبيّن بأنّ هذا هو طريق النّجاة؛ ولذا فإنّ السّبعون ألفًا الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب إنّما طريقهم لذلك هو التّوحيد.

انتهينا الآن من كلام عن الإشراك بصورة مختصرة.

«عقوق الوالدين»

عقوق الوالدين هذا أمر لا يحتاج إلى بيان وشرح، لكنّه في النّهاية وفي مجمل المعنى سنخرج بثلاث فوائد على الأقلّ من إيراده في الحديث:

- الفائدة الأولى: أنّه اقترن بالإشراك واعتبر من أكبر الكبائر، دلالة على خطورته وعظمته.

فالنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» وفي نفس الوقت قال: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» يعني هناك أمرين يجعلان عقوق الوالدين شيئًا عظيمًا:

الأمر الأوّل: أنّ اسمها: أكبر الكبائر ووصفها: أكبر الكبائر.

الأمر الثّاني: وأنّها في السّياق اقترنت بالشّرك بالله.

وأنتِ لابدّ أن تتنبهي لهذا الأمر: حين يأتي شأن مقترنًا بشأن أكيد أنّه يدلّ على نوع اشتراك.

شأن يشترك بشأن، يعني هناك نوع اشتراك بينهما.

فأصبح أكبر الكبائر الآن عندك اثنين:

١) الإشراك بالله.

٢) وعقوق الوالدين.

- الفائدة الثّانية: الّتي نستفيدها من كون عقوق الوالدين من الكبائر، أنّ الله -عزّ وجلّ- يحبّ من العبد أن يكون شاعرًا بالنّعمة شاكرًا لأصحابها.

وهذا يجعلنا نفهم لماذا الشّرك وعقوق الوالدين مشتركان؟ لماذا يعتبران كبيرتان متجاورتان؟

الآن الشّرك في أصله كأنّ العبد يقول: (ربّي أنعم عليّ، ربّي أعطاني، ربّي أغناني) بعد هذا كلّه، يشكر غير الله! لأنّ العبادة في حقيقتها شكر.

فالّذي يشرك بالله في العبادة كأنّه يترك شكر الله ويشكر غير الله!

الشّرك في حقيقته عبارة عن عبادة يجب صرفها لله:

- فيصرفها لله ويصرفها لغير الله!
- أو يصرفها لغير الله!

أوّل شيء لابدّ أن تفهمِي ما هي العبادة؟

لمّا قال الله عزّ وجلّ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]

ما معنى﴿اعْمَلُوا﴾؟ يعني اعبدوا، اعبدوا عبادة الشّاكر.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ بمعنى: أنّ العبادة هذه من الشّكر، العبادة شكر، شكر على ماذا؟ من البداية: على الأرض المعدّة، والبدن

---

(١) سبأ: ١٣.

المعدّ، والإمداد الدّائم لك، الإمداد من أنفاسك إلى دمك، إلى عقلك، إلى تفكيرك، إلى نطقك.. الإمداد الدّائم، فأنت أصلًا ما تقوم إلّا بالحيّ القيّوم، فأنت تعيش على إمداد الله، فيكون الشّكر لمن أعدّك وأمدّك.

فحين تذهب وتشكر غيره؟! تشكر بمعنى: تعبد.

حين تشكر غيره، تكون ارتكبت أكبر الكبائر الّذي هو: الشّرك.

تعالى إلى الوالدين من نفس المنطلق ماذا ستقول؟ الوالدان الله أجرى على أيديهما نعمًا كثيرة، هذه النّعم حقّها الشّكر لله، ولمن أجرى الله على يديه هذه النّعم، فالله يحبّ من عبده أن يكون شاكرًا للنّعماء:

- يشكر الله بالإخلاص.
- ويشكر الوالدين بالإحسان، وليس بمجرّد أن يكفيهم شرّه.

لأنّ أيّ شيء ضدّ العقوق؟ هو: البرّ، وبكلمة أخرى أيّ شيء ضدّ البرّ؟ هو: العقوق.

فالبرّ ضده العقوق، والعقوق ضدّه البرّ:

الآن أنت بارّ، يعني واصل، وعاق يعني قاطع.

يعني ممكن تكون قاطعًا لا تؤذيهم! كما في تعبيرنا الدّارج: (كافٍ خيري شرّي! فإذًا أنا لم أفعل لهم شيئًا!) فيرى نفسه طالما لم يفعل لهم شيئا فهو ليس عاقًّا! يعني النّاس يحسبون أنفسهم عاقّين إذَا آذوا،

وأنت لن تفهميها إلّا حين تأتين بالضّدّ: ضدّ العقوق البرّ، والبرّ ضدّ العقوق.

البرّ بمعنى: الوصل والإحسان.

برّ الوالدين، الإحسان لهما، يعني أنّك لابدّ أن تحسني.

فإذًا صار شيئان ضدّ الإحسان:

١) الإساءة.

٢) أو أنّك لا تُحسن ولا تُسيء.

صحيح في هذه الحالة: لا أنت تُحسن ولا أنت تُسيء، ليس مثل الإساءة، لكنّ العقوق أصبح درجتان:

١) درجة أنّك تؤذي الوالدين.

٢) ودرجة أنّك لا تؤذي ولا تُحسن.

لماذا اعتبرت درجة؟ لأنّ المأمور به الإحسان والمأمور به البرّ، يصير معنى ذلك: أنّ عقوق الوالدين ذُكر مع الإشراك.

نحن في النّقطة الثّانية الآن وعندنا ثلاث نقاط، استفدنا الآن من وجود عقوق الوالدين مع الإشراك أمران هي:

الأمر الأوّل: خطورة عقوق الوالدين.

الأمر الثّاني: أنّهما يشتركان في نفس المادّة وهي: أنّ الإنسان ليس بشاكر والمفترض أن يكون شاكرًا.

لكن الإشراك بالله وعقوق الوالدين، يعنيان أن هذا الإنسان جاحد.

جاحد: هذه صفة تدلّ على خساسة النّفس، يعني الإنسان يصبح خسيسًا حين يمدّ أحد له يد العون في وقت ضعفه وبعد ذلك حين يحتاجه لا يردّ عليه.

وهنا لابدّ أن نتّفق على هذه النّقطة الثّالثة:

- الفائدة الثّالثة: أنّ عقوق الوالدين مصدره الرّئيسي: عدم الرّغبة في الآخرة! لأنّ برّ الوالدين مصدره الرّئيسي: الرّغبة في الآخرة.

ومن أجل أن نتصوّر المسألة، فهذه نقطة اشتراك بين الإشراك وبين عقوق الوالدين، يعني الإنسان يحرص على التّوحيد ويحرص على برّ الوالدين كلّما فكّر أنّه لن يلقى إلّا الله.

فإذًا متى تحرص على التّوحيد متى؟

- حين تعرف أنّك أصلًا لا تُعامل إلّا الله.
- حين تعرف أنّك لن تلقى إلّا الله.
- حين تعرف أنّ وليّك هو الله.
- حين تعرف أنّ ناصرك هو الله.

هكذا ستحرص على التّوحيد.

بينما حين يضيع هذا من عقلك ولا تفكّر في الآخرة! ولا تحرص على التّوحيد! لأنّك تقول: (غدًا! غدًا!) وكلّ التّفكير في الدّنيا!

حين تفكّرين في الدّنيا يضعف توحيدك! وحين تستمرين في التّفكير في الدّنيا فإنّ برّك لوالديك سيضعف! لماذا؟ لأنّه متى سيصير منك برّ؟ حين تصبح أنت الأقوى، وهم الأضعف، هكذا سيصبح البرّ.

متى يصير البرّ؟ متى وقت البرّ؟ حين يكونان هما الأقوى؟ لا! وإنّما حين تصبح أنت القويّ وهما الضّعيفان.

إذَا كان همّك الدّنيا سيشكّلان لك شيئًا زائدًا عن الحاجة! يعني يصبحان سببًا ومصدرًا للنّكد! وممكن يكونان عالة عليك!

فمثلًا: في الأوّل كانا يعملان، ينفقان، لابدّ منهم كواجهة من أجل أن يتزوّج الشّابّ، أو تتزوّج المرأة، ممكن ينفعان حين كانا ينتبهان لأولادنا! حين كنّا ندرس! ممكن...!

لكن الآن لا يوجد نفع فإذًا ماذا سيصبحان؟ ليس لهما فائدة، ما دام الأمر دنيا! صار لا يوجد فائدة!

ولهذا حين تنظرين للدّنيويّين حولك في العالم من شرق وغرب، تجدِين أنّ الخلق حين يكبر سنّهم عندهم يصير ليس لهم مكانًا إلّا الملاجئ! وليس بيوت أولادهم وبناتهم! يصير الملاجئ هي مكانهم!

وتجدِين المرأة لا تستطيع أن تتحرّك وتضطرّ أن تذهب لتأتي بكأس الماء ليس من بيتها وإنّما من الشارع! من المكان الّذي تستطيع أن

تشتري منه! يعني هي تتسوّق من أجل أن تتمكّن من الأكل والشّرب أو أنّها تموت!

هذا معناه: أنّ الدّنيويّين من الطّبيعي جدًّا أن يكون برّ الوالدين عندهم ثُقل ليس له قيمة لأنّ كلّ المعاملات عندهم حسابيّة! إلى أيّ درجة أنت تنفعني؟! على قدر منفعتك لي أنا معك!

ولذلك تجدهم يَصِلُون الوالدين الأغنياء مادام الوالدين أغنياء فإنّ الأبناء يصيرون مجتمعين عليهم! لكن متى ما كانوا غير منتجين أهملوهم! -بالمصطلح الّذي يستعملونه!- على أساس أنّ الإنتاج يكون في الدّنيا! فمتى ما كانوا غير منتجين أصبحوا عالة وأحسن شيء لهم أنّهم يذهبون إلى الملاجئ!

وتصوّروا: فإنّ هناك تقريرًا قريبًا جدًّا في الشّهر الماضي: ذكروا دولتين فيهما الكبار في السّنّ يفتعلون المشاكل في الشّارع من أجل أن يأخذوهم فيسجنوهم! لماذا؟! يقولون بأنّه: (في السّجن هناك أناس أتحدّث معهم، وهناك أحد يهتمّ بي! ويعطيني الأكل)! لهذه الدّرجة!

وهذا الكلام ليس من الخيال وإنّما في تقرير قريب جدًّا خلال الشّهر الماضي.

إذًا معنى ذلك: ماذا تُعتبر الدّنيا؟ صار النّاس وحوشًا فقط يأخذ منك ما ينفعه ومتى ما كنت غير نافع فإنّه لا يهتمّ لأمرك! طبعًا في الدّنيا غير نافع!

ولذَا فإنّ الشّريعة أكّدت على برّ الوالدين وجعلته قرينًا لتوحيد الله:

١- من باب شكر من جرت على يديه النّعم، فنعم الله جرت على يد الوالدين.

٢- ومن باب آخر مهمّ وهو: أنّ الله -عزّ وجلّ- جعلهم منفذًا للأجر العظيم.

ونحن الحمد الله في نعمة، نسأل الله -عزّ وجلّ- ألّا يزيلها عنّا، لا زال الوالدان يُعتبران سببًا لبركة البيوت، لا زال الوالدان مكرّمين، محترمين.

لكن الخطر فقط يأتي من زيادة حبّ الدّنيا! لو زاد حبّ الدّنيا في نفوس النّاس، ستكون النّتيجة أنّ الحسابات دائمًا تكون ماديّة، فيحسب الحسبة هكذا ويرى أنّ هذا الوالد ليس منه منفعة! فتكون النّتيجة كما تعلمون!

فالمقصد الآن: أنّ عقوق الوالدين إنّما هو من خساسة النّفس، ويزيد الأمر خطورة حين يكون الباعث على عقوق الوالدين حبّ الدّنيا.

فأحيانًا يكون الباعث على عقوق الوالدين أنّ الإنسان يُبتلى بوالدين أصحاب طباع سيّئة وهو لا يقدر على الصّبر، فيأتي في مواقف ويعقّهم! وهذا يسمّى عقوقًا وهو إثم!

لكنّه ليس مثل إثم الّذي يعقّ والديه من أجل حبّ الدّنيا، يعني سيعظّم الذّنب الآن؛ لأنه أصلًا حبّ الدّنيا مذموم، فيكون جمع أمرين الآن:

الأمر الأوّل: عقَّ والديه.

الأمر الثّاني: أن السّبب في العقوق حبّ الدّنيا.

يشعر أنّه يشغل عليه غرفة "على الفاضي" بهذه الطّريقة يفكّر!

فلا تستغربوا لأنّ ألمانيا النّازيّة أيّام الحرب العالميّة الثّانية، أتت فرأت أنّ بعد الحرب عندها كبار في السّنّ وعندها أناس معوّقين بسبب الحرب قد قُطعت أطرافهم فحصلت لهم إعاقة، وبما أنّه لا يوجد لهم فائدة عمليّة فإنّهم حسبوا الحسبة ووجدوا أنفسهم يخسرون بوجودهم فهم يطعمونهم ويسقونهم! فجمعوهم وأحرقوهم! وهي المحرقة المشهورة في التّاريخ الّتي فيها أنّ اليهود أيضًا حُرّقوا -على ما يقولون- أنّ اليهود حُرّقوا!

على كلّ حال فهذا ماذا يعني؟ ماذا يساوي هذا الآن؟ أنّ الإنسان عبارة عن مادّة، متى ما كنت منتجًا فنعم المرء! ومتى لم تكن منتجًا فإنّه ليس لك قيمة!

وهذا عكس ما يعتقده أهل الإسلام، فأهل الإسلام يرون أنّ هذين الوالدان المصلّيان، الصّائمان، سبب لنزول البركات في البيوت، يرون أنّ هذين الوالدان سببًا لميراث عظيم من الأخلاق، ينقلونه لأحفادهم،

فإنّ هذا الفرق الكبير سيترحّل إذَا كان الاتّجاه للنّاس قد تقدّم نحو حبّ الدّنيا!

يعني لابدّ أن نكون خائفين على غياب هذه القيمة، الّتي هي برّ الوالدين، ولابدّ أن نكون فاهمين أنّ سبب غياب هذه القيمة هو حبّ الدّنيا! لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يصبر إذَا صار يحبُّ الدّنيا! لا يستطيع أن يصبر عن أحد يمنعه من شهواته، فيريد التّخلّص من أيّ أحد يمنعه من الشّهوات! فنحن مالنا إلّا أن نسأل الله -عزّ وجلّ- ألّا يجعل الدّنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا لنا وأبنائنا.

لكنّ الدّعاء لابدّ أن يكون معه العمل، فلا تكن طامعًا في الدّنيا وطوال النّهار أبناؤك لا يسمعون إلّا عن الدّنيا وحبّها والجري ورائها، بعد هذا كلّه وبعدما يشاهد يقول: (هؤلاء عندهم كم قصر! هؤلاء كم دخلهم؟ هذا المطعم كم دخله شهريًّا؟ هذه المدرسة الأهليّة كم دخلها؟)! وهم يسمعون هذا الكلام وأنت تحسب وتحسب أموال النّاس! تحسب لو أنّك فتحت كذا ماذا يصير لك؟ وبعد ذلك في الأخير تقول: (اللّهمّ لا تجعل الدّنيا أكبر همّنا)!

جزاك الله خيرًا! لكنّ هذين اتّجاهان متضادّان، والشّيطان لن يثبّت في قلب الجيل القادم -إذَا كان والديهم بهذه الطّريقة والمجتمع بهذه الطّريقة- إلّا زيادة حبّ الدّنيا.

أمّا الكلمتان اللّتان تقولهما على أساس أنّك تُظهر لنفسك أنّك لا تحبّ الدّنيا فإنّ هذه ليس له أثر! لأنّ الصّدق هو القوّة في الحقّ.

انظري الصّدّيق يقول عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ»[1] يعني عنده قوّة في قبول الحقّ، لكن تأتي أنت تقول: أنا لا أحبّ الدّنيا وأنت من الدّاخل عندك قوّة في حبّ الدّنيا! هذا يعني قوّة في الكذب وليس قوّة في الصّدق!

فالله يعيذنا حقًّا! حقًّا! من حبّ الدّنيا، فحبّ الدّنيا أمر يتسرّب إلى النّفس غصبًا عنّا! ويحتاج أن تَكوي كلّ الأماكن الّتي فيها حبّ الدّنيا، وكيّ حبّ الدّنيا لا يعني عدم عيشها وإنّما لابدّ أن تعيشها لكنّك تريد حرث الآخرة وليس حرث الدّنيا.

«قول الزّور»

في ثلاث دقائق نقول: «وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ» ما المقصود بقول الزّور؟ يعني قول الكذب، فقول الزّور يبتدئ بالكذب! لكنّه هنا يُقصد به تحديدًا: شهادات الزّور المؤدّية إلى الظّلم في الحقوق! يعني تشهد زورًا أنّك محتاج، أو تشهد زورًا أنّ فلانًا هذه أرضه، أو...

تفهمون هذا الشّيء، وهناك كثير من النّاس عند المحاكم جالسين يتاجرون بشهادات الزّور، لكن لا تشيروا لمن عند المحاكم وننسى أنفسنا لأنّ هناك أبواب كثيرة ممكن يحصل فيها شهادة الزّور!

---

(١) المستدرك على الصّحيحين (٤٤٣٢).

الشّاهد: أنّ شهادة الزّور أيضًا سببها الرّئيس: حبّ الدّنيا! يعني اشترك الثّلاثة في كون أنّ منبعهم: حبّ الدّنيا! هو داء عظيم يأتي من ورائه كلّ بلاء! بل لن نبالغ إذَا قلنا إنّنا طوال سيرنا سنقول:

والسّبب: حبّ الدّنيا!

منبع كلّ بلاء يقع فيه الإنسان من الذّنوب والكبائر: حبّ الدّنيا!

وأصل علاج هذه الكبائر:

- ترك حبّ الدّنيا.
- والتّفكير فيما عند الله.

أسأل الله -عزّ وجلّ- أن يجعلنا من الصّادقين والمخلصين.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الرّابع

٢٤ المحرّم ١٤٤٠هـ

كبائر القلب

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا، طيّبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه، أن يجعلنا من أهل القرآن، أهل الإيمان، أهل السّنّة والجماعة، الّذين استقاموا على سنّة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فعملوا ما أمر به -صلّى الله عليه وسلّم- واجتنبوا ما نهى عنه -صلّى الله عليه وسلّم- فإنّ القُربى لربّ العالمين ما تكون قُربى إلّا إذا كانت على سنّة النّبيّ الكريم -صلّى الله عليه وسلّم فنحن لله موحّدون، ولرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- مُتّبعون؛ وممّا يجب علينا في هذا الباب أنّنا لابدّ أن نتعلّم:

- ما أمر به الله -عزّ وجلّ- في كتابه وعلى لسان رسوله.
- وما نهى عنه الله -عزّ وجلّ- في كتابه وعلى لسان رسوله.

وهذه السَّنَّةُ -أسأل الله أن يُبارك لنا- سنقضيها في الكلام عمّا نهى عنه الله في كتابه، ونهى عنه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في سنّته الشّريفة، تحت عنوان **الكبائر**.

وقد تبيّن لنا من اللّقاءات الماضية:

١- أنّ الذّنوب فيها أقسام: فيها كبائر وصغائر.

٢- وتبيّن لنا أنّ اجتناب الكبائر سبب لتكفير الصّغائر.

٣- واجتناب الكبائر سبب لأن يتيسّر للإنسان مُدخلًا كريمًا عند ربّ العالمين.

وسنجد أنّه توجد فوائد كثيرة، من وراء اجتناب الكبائر، يعني من فضل الله أنّ اجتناب الكبائر يسبّب كفّارة الصّغائر.

وحين نقول هذه الفائدة، لا تنسوا أنّ الصّغائر قد تجتمع على العبد؛ فتهلكه!

يعني حين تسمعِين: صغائر، لا تشعرِين بأنّها شيء بسيط! من فضل الله أنّه إذَا اجتنبتِ الكبيرة؛ كان أثرها أن تُكَفَّرُ عنك الصّغيرة.

وبدأنا بأوّل باب؛ وكنّا قد اتّفقنا بأنّنا سندرس كتاب الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب الّذي عقده في تصنيف **الكبائر** تحت اسم **"كتاب الكبائر"** وكان فيه عدّة أبواب، الأبواب هذه لها ترتيب خاصّ.

بدأ فقال: (كتاب الكبائر وقول الله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ فإنّ اسم الكتاب جزء من المتن وبعد ذلك ورد عن (ابن جرير عن ابن عباس قال: الكبائر كلّ ذنب ختمه الله بنار...)

فإذًا مقدّمة الكتاب فيها الآية، ما دلالة الآية على الكبائر؟ فيها فضل اجتناب الكبائر. ما هو فضل اجتناب الكبائر؟ جاءت آيتان: آية سورة النّساء وآية سورة النّجم.

- آية سورة النّساء تُدلّ على أنّ اجتناب الكبائر سبب لأن يكفّر الله عنّا الذّنوب والسّيئات، ويُدخلنا مُدخلًا كريمًا.
- وآية النّجم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[1] والآية الّتي قبلها دلّت على أنّهم سيكونون من الّذين أحسنوا.

أوّل تقرير: تبيّن لنا أنّ كلمة **كبائر** موجودة في كتاب الله، وأنّ هناك فضل لاجتنابها.

بعد ذلك بيَّن لنا ما هي الكبائر. فإذًا المقدّمة:

١) كتاب الكبائر.

٢) فضل اجتناب الكبائر.

٣) حدّ الكبيرة.

بعد ذلك جاء بعنوان: (باب أكبر الكبائر) دليل على أنّ هناك **كبائر**، وهناك **أكبر الكبائر**.

---

(١) النجم: ٣٢.

فصار عندك ثلاث مستويات الآن:

١) صغيرة.

٢) كبيرة.

٣) وأكبر الكبائر.

ثمّ أورد الحديث: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ..» وذكر ما ورد في هذا الحديث الّذي ورد في الصّحيحين، وكنّا قد تناقشنا فيه.

دعونا نبدأ الآن في الباب الّذي بعده.

لا تنسوا! فإنّه مهمّ جدًّا أن تتصوّروا طريقة عقده للأبواب؛ لأن نفس طريقة عقده للأبواب فيها فوائد، يعني تصوّرنا أنّ هناك: كبائر وصغائر وهناك أكبر الكبائر من خلال عقده لباب أكبر الكبائر.

فإذًا الآن (باب كبائر القلب) سنقرأ وبعد ذلك نعلّق من عنوان الباب على الأدلّة.

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب الكبائر:

("باب كبائر القلب"

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» رواه مسلم[1].

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧٩).

وعن النّعمان ابن بشير -رضي الله عنه- مرفوعًا قال: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» [1].)

فإذًا الآن بعدما عَقَدَ بابًا سمَّاه (أكبر الكبائر) عَقَدَ بابًا سمّاه (كبائر القلب).

دعونا من اسم الباب نقرّر تقريرًا: اسم الباب يدلّنا على أنّ القلب له كبائر.

فالآن لو قلت: إنّ القلب له كبائر؛ فإنّك في مقابله ستقولين أيضًا: البدن يقع في كبائر.

نحن ماذا نتوقّع دائمًا؟ أنّ الكبائر لابدّ أن تكون عمليّة، وأنّ البدن هو الّذي يقوم بها!

في هذا التّنبيه قال: إنّ القلب قد تحصل منه كبائر، ويقصد بها: أنّ القلب يمكن أن تحصل منه كبائر، والبدن لا يُشاركه في وقوع الكبيرة؛ بمعنى: أنّ البدن قد تحصل منه كبائر، لكن عادةً الكبائر البدنيّة لابدّ أن تقارنها كبيرة قلبيّة، والعكس ليس صحيحًا. فالبدن إذا وقع في كبيرة لابدّ أن تصحب كبيرة البدن، كبيرة في القلب، مثل: الاستهانة بأمر الله، يعني البدن لابدّ أن تكون معه كبيرة القلب، والعكس فإنّ القلب تحصل منه كبائر بدون أن يُشاركه البدن.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢).

التّعليق على الدّليل الأوّل: (١) الله ينظر إلى القلب:

(عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» رواه مسلم.)

دعونا نرى أوّلًا ماذا يريد بهذا الباب؟ ماذا يريد بهذه الدّلالة؟ وما دليله على ذلك؟

قد عرفنا أنّ هناك كبائر القلب. نرى الآن ما دليله على ذلك؟

أورد الحديث الّذي رواه مسلم (عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».)

الآن في هذه الجملة لم تنصّ الدّلالة المباشرة على أنّ القلب هو الّذي يرتكب كبيرة؛ إنّما هناك دلالة على مكانة القلب في العمل، على مكانة القلب في الشّرع.

إذًا دعونا نرى ماذا نثبت في الدّليل؟ فنحن الآن قد تبيّن لنا بأنّ الدّلالة هنا لم تكن دلالة من النّوع المباشر.

⇐ الدّلالة من النوع المباشر، ماذا تعني؟ يعني الدّليل ينُصّ على المسألة.

هو قال: (كبائر القلب) فأنت ماذا تتوقّعين؟ أن يأتي الدّليل، يقول إنّ هناك كبائر للقلب، لكن حين قرأنا الدّليلين لم نجد دلالة مباشرة.

فإذًا دعونا نرى الدّلالة الضّمنيّة. نذكر فوائد الحديث، وأثناؤها ستظهر لنا الدّلالة الضّمنيّة:

أوّل أمر يتبيّن لنا من الحديث: هو أنّ الله -عزّ وجلّ- ينظُر إلى عبيده.

إذًا نثبت النّظر له -سبحانه وتعالى- وهو من إيماننا بأنّه -سبحانه وتعالى- بصير؛ وأنّه -سبحانه وتعالى- لا تدركه الأبصار، وهو سبحانه يدرك الأبصار.

وكما أنّه -سبحانه وتعالى- واسعٌ في صفاته، فمن المؤكّد أنّه واسعٌ -سبحانه وتعالى- في بصره؛ ينظر، يعني أنت مؤمنة أنّ من أسماء الله أنّه واسع، فمن آثار اسم الله الواسع أنّه: واسعٌ في بصره، واسعٌ في علمه، واسعٌ في حلمه، واسعٌ في غناه، واسعٌ في فضله، فإذًا هو واسعٌ في ماذا؟

عُدي لأنّ اسم الواسع يشمل كلّ الأمور الّتي تستطيعين أن تدركيها:

واسعٌ في رحمته، واسعٌ في مغفرته، في رزقه...إذًا من إيمانك أنّه واسع فإنّك تؤمنين أنّه واسعٌ في بصره، فهو -سبحانه وتعالى- لا تدركه الأبصار، وهو يدرك -سبحانه وتعالى- كلّ المُبْصَرَاتِ.

إذًا هذا أوّل أمر نعتقده: الّذي هو "إثبات النّظر والرّؤية" النّاتج عن إيمانك بأنّه بصير سبحانه وتعالى.

يأتي الأمر الثّاني: أنّ إثبات النّظر منه -سبحانه وتعالى- يترتّب عليه:

⇐ أن نعلم أنّ هناك نظر عامّ يشمل جميع العباد.

⇐ وأنّ هناك نظر الإثابة، يعني من الثّواب.

ولأجل أن نفهم هذه دعونا نفكّر في اسم السّميع؛ والبصير يشبه له.

الآن ماذا تعتقدين في اسم السّميع؟ أنّ الله -عزّ وجلّ- يسمع. يسمع ماذا؟ كلّ الأصوات، باختلاف اللّغات، وهذا من إيمانك باسمه الواسع أيضًا: أنّه واسعٌ في سمعه -الحمد الله هذا واضح- إذًا فسّري ما معنى: سمع الله لمن حمده؟ يعني أنتِ تثبتين شيئين معًا:

أوّلًا: تثبتِين السّمع.

ثانيًا: وتثبتِين ما يترتّب على السّمع، يعني هذا سمع إجابة، سمِع سمَاع رضا فأجاب. سمع الله لمن حمده: سمَاع رضا فأجابه. أنت ماذا تقولين بعدما ترفعين من الرّكوع؟ (سمع الله لمن حمده) ماذا تقولين مباشرةً بعدها؟ (ربّنا ولك الحمد) يعني اسمعنا يا ربّ ونحن نقول: (لك الحمد) وأنت مستحقّ للحمد، فاسمع منّا هذا واقبله منّا.

فإذًا هذا السّمع؛ فكّري في النّظر الآن بنفس الطّريقة:

في الأمر الأوّل في النّظر فإنّه مثل السّمع العامّ، أنتِ تعلمين أنّ الله -عزّ وجلّ- يسمع: كلام أهل الكفر، وأهل الإيمان، يقولونه علانيّة، يقولونه بسرّهم، يقولونه بلغات متعدّدة؛ فإنّ الله -عزّ وجلّ- يسمعه؛ لكن تفرّقِين بين هذا السّمع وبين: سمع الله لمن حمده: فهذا لأناس خاصّة، ونوع سمع خاصّ، وهو أنّه -سبحانه وتعالى- يستجيب لمن

حمده، فيصير سَمْعَ رضًا وقبولٍ؛ فإذًا النّظر بنفس الطّريقة ماذا تقولون؟ أنّ الله -عزّ وجلّ- ينظر للخلق عامّةً، وهذا من فهمنا لاسمه البصير سبحانه وتعالى.

والآن سنتكلّم عن خصوصيّة النّظر، انظري للحديث وقولي خصوصيّة النّظر، ماذا ستقولين؟ هناك شيء منفيّ، وهناك شيء مُثبت:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» ماذا يعني «لَا يَنْظُرُ» هنا؟ يعني هل هو نفي للنّظر الّذي هو داخل تحت إيمانك باسمه البصير؟

لا! إنّما المقصود هنا الخصوصيّة الّذي هو نظر الاعتبار، نظر الإثابة، مثل: (سمع الله لمن حمده).

إذًا نظر الإثابة والخصوصيّة منفيّ عن الصّور والأموال؛ ويختصّ به القلب والعمل، وسنفهم كيف يختصّ به القلب والعمل؟ لكن الآن النّقطة الأساسيّة هي: إيمانك أنّ الله ينظر نظرًا خاصًّا بعد إيمانك أنّ هناك نظر عامّ، وأنّه -سبحانه وتعالى- بصير بكلّ العباد.

فإذًا هذا نحن منتهون منه، لكن الآية تتكلّم عن شيء خاصّ: النّظر الّذي وراءه الإثابة، النّظر الّذي فيه خصوصيّة.

دعونا نرى هذه النّقطة ونتصوّر أحوال النّاس في النّظر؛ فنحن انتهينا الآن في هذه النّقطة من الكلام عن نظر الله وسنتحوّل للكلام عن نظر الخلق:

نظر الخلق الّذي فيه إعجاب سيكون بماذا في الأصل؟ النّاس ينظرون لبعضهم من خلال ماذا؟

الصّور والأموال، فهذه هي الّتي ينظرون إليها. أصلًا هذا هو الّذي يستطيعون إدراكه أوّلًا، ثمّ إنّ هذا هو الّذي يهُمّهم: الصّورة الخارجيّة، فهذه هي إمكانيّاتهم وحدودهم أنّهم يرون الصّورة الخارجيّة، ومن ثمّ فإنّهم لا يتحمّلون رؤية القبيح من الصّور، وهذا شيء طبيعيّ، يعني فطرة إنسانيّة أنّ القبيح من الصّور، الدّامي من الصّور، المؤلم من الصّور، كلّ هذا، النّفوس لا تستطيع أن تنظر إليه؛ وحدود نظر النّاس -كما اتّفقنا- في الظّاهر؛ ومن ثَمّ يمكن أن يأتي النّاس فَيُخدعون بالصّور الخارجيّة، وكلّما زاد النّاس عناية بالدّنيا، وحبًّا لها، وتعلّقًا بها، زاد هذا المؤشّر قوّةً: فلا يهمّهم إلّا الصّورة الخارجيّة. يعني الآن النّظر الّذي ينظر الإنسان من خلاله لمن حوله؛ فإنّه ما يستطيع في الحقيقة إلّا أن ينظر إلى ظاهر الأمور.

أمّا إذا كان الإنسان معه إيمان فإنّه سينظر إلى الأعمال، إلى القيم، إلى الأخلاق: الّذي يتوقّع أنّها صادرة عن صدق؛ فهذه هي حدوده! وأمّا حين يكون من أهل الدّنيا؛ يصبح ما هو همّه؟ الصّورة والمال. وحين يكون من أهل الإيمان فإنّه يتعدّى هذه قليلًا ويهتمّ: بالأخلاق، بالقيم، بالرّوح، -دعونا نقول- بما يظهر من آثار الاستقامة، فعينه مع الأيام لا تعد ترى الصّورة الخارجيّة وإنّما بعد فترة من الزّمن يستطيع أن يُحبّ النّاس مع تلاشي صورتهم الخارجيّة والعناية بمعدنهم؛ متى يحصل

هذا؟ حين يكون الإنسان مؤمنًا، وكلّما قوي الإيمان تلاشت أهمّيّة الصّورة الخارجيّة وصار المهمّ الصّورة الدّاخليّة، المعنى الدّاخلي. وهذا فرق كبير طبعًا! بين الإنسان الضّعيف الّذي هذه هي حدود بصره، وبين ربّ العالمين الواسع في صفاته.

لكن لاحظوا المسألة المهمّة: أنّ الإنسان كلّما زاد إيمانًا صارت عينه لا ترى إلّا الباطن؛ وإن كان لا يستطيع أن يثقب الباطن لكن على قدر حدوده.

هذا المعنى يُقال لك فيه:

هيّا ابدأ بنفسك قبل أن تفكّر أن ترى أيّ أحد!

إنّ الله لا ينظر إلى صورتك الخارجيّة.

كما أنّك حين تقوى إيمانيًّا فإنّك تنسى صورة النّاس الخارجيّة ولا تهتمّ بهم.

ومن أجل أن تتأكّدوا من هذا دعونا نرى مشاعرنا تجاه أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- يعني السَّنَةِ الماضية حين كنّا نتدارس حديث أبو هريرة -رضي الله عنه- وموقفه من النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في الحديث المشهور ونقول: (أبو هريرة فعل كذا، وفعل كذا، وقال للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كذا) هل كان يهمّنا أن نعرف صورته الظّاهريّة؟ لا! ولا مرَّ على خواطرنا أن نقول: (ما هي صورته الخارجيّة؟) وإنّما كنّا متشبّعين بروحه، بصورته الدّاخليّة.

وهذا هو الشّيء الطّبيعيّ: أنّ الإنسان كلّما ازداد إيمانًا؛ سقطت من عنده الصّورة الظّاهريّة. وصارت أهمّ شيء عنده الصّورة الدّاخليّة. وكلّما ازداد حبًّا في الدّنيا وتعلّقًا بها؛ صار كلّ الاهتمام منصبًّا على الصّورة الخارجيّة في تقييم النّاس. وما دام يفكّر هكذا في النّاس فإنّه سيفكّر في نفسه بنفس الطّريقة.

لماذا نتكلّم عن رؤيته للنّاس؟ لأنّ رؤيته للنّاس هي نفس أسلوب تفكيره في نفسه.

فإذَا زاد الإيمان صار الإنسان غير مهتمًّا إلّا بتزيين صورته الدّاخليّة؛ الّذي هو متأكّد أنّ الله ينظر إليها.

والصّورة الخارجيّة لن يعتني بتزييفها -فقط من أجل أن نصل إلى كلمة صحيحة- ولا يأتِ أحد يقول: (هل يعني أنّنا لا نتنظّف؟)! لا! ليس لي علاقة بهذا الكلام بتاتًا، وإنّما أقصد أنه لن يعتني بتزييفها!

فلا يحاول أن يخدع النّاس بالصّورة الخارجيّة. ويفهم أنّ النّاس حينما يكون عندهم إيمان؛ فإنّ الإيمان مباشرةً يثقب الّذي أمامه.

وإذا كان خداعًا؛ فإنّ الإنسان إذا كان عنده إيمان أيضًا يظهر هذا، يعني الرّوح تصبح ثقيلة حين يكون هناك ضعف إيمان، وتصبح خفيفة حين يكون الإنسان صادقًا.

على كلّ حال فليس هذا ما يهمّنا الآن! وإنّما الّذي يهمّنا في هذا الكلام أنّ هذا المقياس الإنساني الّذي هو الاهتمام بالظّاهر وترك الباطن لا يأتي إلّا بسبب حبّ الدّنيا!

وإلاّ فإنّ الإنسان لو علم أنّ الرّحمن لا ينظر إلى صورته، يعني ليست ذات أهمّيّة! ليست ذات بال! ليست قضيّة! لأنّه هو الّذي صوّركم ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1] فلن تكونوا أحسن من بعض لأنّ صورتكم الخارجيّة أحسن! إنّما سيكون النّاس درجات في الإيمان على حسب البلاء الّذي ابْتُلِي به في الخلق ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [2] ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ هذا سيكون أين؟ في الدّاخل وليس في الخارج. ومن هنا نفهم أنّ نظر الله إلى قلوب الخلق، معناه: أنّه يبتليهم ببلايا ليرى ما في قلوبهم ويظهر ما فيها. وسنرتّب مجموعة أمور، لكن هذا الأمر من أهمّ الأمور الّتي نخرج بها.

من أجل ألّا يتشعّب النّقاش، دعونا ننظر مرّة أخرى للحديث ونتّفق على الجمل والفوائد منه، وبعد ذلك نخرج إلى الخارج.

الفائدة الأولى من الحديث: أنّ صفة النّظر من ربّ العالمين هنا منفيّ ومثبت.

---

(١) غافر: ٦٤.

(٢) الشّمس: ٧_٩.

فإذًا اتّفقنا الآن على أهمّ فائدة، وهي: صفة النّظر من ربّ العالمين هنا منفيّ ومثبت. هل هذا المنفيّ والمثبت نفيًا للبصر؟ لا! فنحن اتّفقنا هنا: النّظر الخاصّ؛ فإذًا:

⇐ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» نظرًا خاصًّا يترتّب عليه الإثابة.

⇐ «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» نظرًا خاصًّا يترتّب عليه الإثابة.

إذًا هناك شيء منفيّ، وهناك شيء مُثبت.

الفائدة الثّانية من الحديث: أنّ الصّور والأموال ليس لها شأن عند الله وإنّما الشّأن عند الله في القلوب والأعمال الصّادرة منها.

إلى الآن لم نصل إلى كبائر القلوب، فنحن إلى هنا فقط نُثبت الدّلالة الصّريحة الّتي من النّص.

التّعليق على الدّليل الأوّل: (٢) القلب مكان للكسب

إذا كانت القلوب هي محطُّ نظر الرّبّ، وهي الواجب على الخلق أن يزيّنوها لله -عزّ وجلّ- ألا يمكن أن يكون هناك دَعَاوَى في القلوب؟ ألا يمكن أن يدّعي النّاس الإيمان بقلوبهم؟ بلى! يمكن أن يدّعوا الإيمان، ويمكن أن يظنّوا أنفسهم أنّهم محسنون، وأنّهم مصلحون، وأنّ قلوبهم حقًّا فيها خير.

هل الله -عزّ وجلّ- يترك النّاس على دعواهم؟

لا! وستتذكّرين أوائل سورة العنكبوت ماذا ستقولين؟ ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾.

﴿ءَامَنَّا﴾ هذه: عمل القلب، ويأتي بلسانه يقول: (أنا آمنت)! وهو مصدّق أنّه آمن! بينما هو يتصوّر هذا عن نفسه!

فالجواب: لا! لن يتركهم بلا ابتلاء! إذًا ما دام أنّ القلوب هي محطّ نظر الرّبّ، وهي الّتي يجب أن نهتمّ بزينتها، أو بتزكيتها وتطهيرها؛ فإنّه لابدّ أن نعلم أنّ الله -عزّ وجلّ- من رحمته يكشف لنا حقيقة ما في القلوب بالابتلاء.

وهنا حين نقول كلمة الابتلاء: سندخل في تفاصيل كثيرة، فيها ابتلاء بشهوات قلبيّة، فيها ابتلاء بمسائل قدريّة يقدّرها الله -عزّ وجلّ- على الخلق، أنواعًا وأشكالًا من الابتلاءات واسعة وكثيرة. لكن في النّهاية الله -عزّ وجلّ- ينظر للعبد ماذا سيفعل بقلبه، ومن ذلك هل يرضى عن الله أو لا يرضى.

مثلًا: لو وقع للعبد قدر، هل القلب يرضى أم لا يرضى؟ لو وقع أمر في الشّرع، هل يُسلّم أم لا يُسلّم؟ هل يقبل أم يردّ؟ ومن أجل أن تتصوّري هذا لابدّ أن تتذكّري الشّيطان، وموقفه مع آدم عليه السّلام.

التّعليق على الدّليل الأوّل: (٣) القلب يكسب طاعات أو معاصي

الآن الشّيطان كما تعلمون في القصّة المشهورة: قصّة آدم، ظهر لنا من خلال القصّة في كتاب الله أنّه من الجنّ وليس من الملائكة ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦ﴾[1]

ما الّذي أصعده إلى درجة الملائكة؟ كما يُذكر في الآثار: أنّه كان عابدًا، تاليًا، ذاكرًا، ارتفع إلى درجة الملائكة، صار مع الملائكة! غير أنّ هذه المنزلة الآن ممكن كلّها تكون كذبًا! يعني الاجتهاد في العبادة ممكن أن يكون كذبًا! ما الّذي يكشف الكذب من الصّدق؟

الابتلاء. إبليس جاءه الابتلاء، ما هو الابتلاء؟

الابتلاء أن خُلق مخلوق جديد رُفعت منزلته عليهم، بمعنى: أنّ الملائكة أُمرت بالسّجود. فلو كان عابدًا صادقًا مثل الملائكة ماذا كان فعل؟ كان سجد؛ لو كان صادقًا في ذكره لربّه وفي عبادته له، لكنّ الحقيقة ظهرت أنّه حين لم يكن الذّكر والعبادة سببًا للارتفاع! وكان هناك أحد آخر سيكون مرتفعًا عليه أَبَى، يعني امتنع واستكبر! إذًا خلق آدام بالنّسبة لإبليس يعتبر ابتلاء! ظهر من الابتلاء هذا أنّه كان كاذبًا.

إذًا الابتلاءات اختبارات كلّها تنزل على القلب تكشف حقيقته وتبيّن صدق اعتقاده وعمله من كذبه:

---

(١) الكهف: ٥٠.

الآن لن نقول على إبليس خاصّةً، لكن عمومًا في مثل هذا الموقف: هل يمكن أن يعيش الإنسان ويظنّ نفسه صادقًا؛ بعد ذلك يأتي الابتلاء ويكشف له أنّه هو كاذب؟ نعم، يعني ممكن يعيش وهو مصدّق أنّه صادق، مصدّق أنّه راضٍ، مصدّق مثلًا: أنّه عابد، أنّه كريم...بعد ذلك يأتي الابتلاء ماذا يفعل به؟ يكشف حقيقته، يكشف حقيقة ما في القلب!

فإذًا معنى ذلك: ما دام ربّ العالمين لا ينظر إلّا للقلوب والأعمال الصّادرة أو الأعمال الموجودة في القلوب والصّادرة من القلب؛ إذًا البلاءات كلّها ستنزل على القلب، تأتي الاختبارات الّتي تبيّن صدق القلب من كذبه.

سننتقل كذلك إلى خطوة من أجل أن نصل إلى الكبائر، وكلّ هذا الطّريق الآن من أجل أن نصل إلى أنّ هناك شيء اسمه: **"كبائر القلوب"**، يعني هكذا اتّفقنا أنّ القلوب تعتقد وتعمل؛ لأنّه أَبَى واسْتَكْبَرَ، الإِبَاءُ هذا من أين؟ من الرّدّ، يعني فعل القلب، غير الامتناع عن السّجود نفسه عمليًّا. فالإِبَاءُ نفسه بمعنى: أنّ القلب وقع فيه الامتناع عن الامتثال لأمر الله؛ والسّبب: الاستكبار. والاستكبار أيضًا عمل قلبيّ؛ إذًا معنى ذلك أنّ: القلوب تُطيع، والقلوب تعصي.

تُطيع وتعصي، نتيجة ماذا تُطيع وتعصي؟ نتيجة:

- ما فيها من إيمان.

- أو ما فيها من كفر والعياذ بالله.
- أو ما فيها من نفاق والعياذ بالله.

إذًا بهذا يتبيّن لنا أنّ القلوب الّتي هي محطُّ نظر الرّبّ عاملة، تعمل.

ما دامت تعمل فإذًا نحن عندنا نوعين من الأعمال:

- إمّا تعمل حسنات.
- وإمّا تعمل سيّئات.

من هذا فهمنا ما توصّل إليه الشّيخ من كون أنّ هناك كبائر للقلب.

إذًا من أين عرفنا أنّ القلب يرتكب كبائر؟

من جهة أنّ القلب يطيع ويعصي.

من أين عرفنا أنّ القلب يطيع ويعصي؟

من كون أنّ الله خصّه بالنّظر، قال: «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» .

«قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» لها معنيان:

المعنى الأوّل: يعني الأعمال الّتي تعملونها بأبدانكم الصّادرة عن أعمال قلوبكم.

المعنى الثّاني: أو أعمالكم القلبيّة.

يعني في الحالتين القلب له عمل وحده منفرد، أو هو مصدر لعمل الجوارح.

إذًا «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» الصّادرة من قلوبكم، أو قلوبكم وأعمالكم القلبيّة، يعني الّتي تكون في القلب.

إذًا هكذا تأكّدنا أنّ القلب يعمل؛ لأن الله ينظر إليه.

ما ينظر الله -عزّ وجلّ- نظر إثابة إلّا لموطن يكسب، بمعنى: يعمل، من أجل أن يُثيبه أو يُعاقبه، فالله ينظر في الحقيقة إلى قلوب العباد الّتي تكسب.

هل يختلف اثنان على أنّ قلوب العبد تكسب؟

لا! هناك اختلاف شديد في نظر النّاس؛ لأنّنا دائمًا نشعر بأنّ الّذي يدور في خلدنا وفي قلوبنا ما لم نحدّث به فإنّنا لا نُحاسب عليه! أليست هذه مشاعرنا؟! وهنا سندخل في إشكاليّة كبيرة جدًّا! أليس هذا الّذي يُقال؟! أليس هذا من أكثر المفاهيم المنتشرة بين النّاس والّتي سبّبت إهمال القلب بأنّ: (ربّنا لا يُحاسبنا على ما في قلوبنا)! يقول النّاس هكذا، فهذا من الكلام المنتشر: (بأنّنا لا نُحاسب على ما في قلوبنا، وإنّما حين نعمل وحين نقول فإنّنا بعد ذلك نُحاسب)! وهذا الاعتقاد هكذا بالمُجمل بهذه الطّريقة ليس صحيحًا!

وإنّما الصّحيح: أنّ الإنسان حين تأتيه خواطر غير مستقرّة، يعني سريعة وغير مستقرّة، هذه من عفو الله أنّه لا يُحاسب عليها الخلق،

السريعة الغير مستقرة الّتي تخطر هكذا، لكن المتكرّرة بعد ذلك والّتي ستستقرّ ثمّ بعد ذلك الّتي ستكون أساسًا للتّفكير؛ كيف تظنّين أنّ الله -عزّ وجلّ- لا يُحاسبك عليها؟ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» إذًا القلوب هي محطّ نظر الرّبّ، إذًا القلوب هي الّتي تعمل.

إذًا لو قلت: (ربّنا لن يُحاسبنا على ما في قلوبنا) من حسد، من كِبر من غِلّ! -لأنّ هذه كلّها عبارة عن أعمال قلبيّة- فهذا يعني أنكِ ستنكرين أن الله يحاسبنا على الإيمان! فإنّك كما ستنكرين هذه الأمراض ستنكرين الطّرف الثّاني!

مثال: ألم يأتِ الرّجل للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كبيرًا في السّنّ على دابّته، والنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- واقف، والرّجل على دابّته كبير محمول، أتى إليه في المدينة فسأله عن الدّين، فأخبره النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أن تشهد أن لا إله إلّا الله، أن تفعل...

هو أجاب قال: (أُقرّ، أُقرّ) كلّما قال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- شيئًا، قال: (أُقرّ) وفي قلبه حصل الإقرار وخرج من لسانه.

مشت الدّابّة قليلًا، وقع هذا من على الدّابّة، غاصت قدم الدّابّة، وقع من على الدّابّة مات!

الآن ماذا فعل؟ الإيمان وقر في قلبه.

وأنتم تعرفون القصّة المشهورة: أنّ هذا الرّجل من المشركين خرج من هذا الصّفّ ودخل إلى الصّفّ الثّاني، لم يُصلِّ ولم يفعل شيئًا، دخل في القتال، قُتل، أصبح من المسلمين.

وإن كان الشّاهد الثّاني فيه: أنّه قاتَل، فممكن يقول أحد: (طيّب قاتَل!) لكن الحديث الأوّل الّذي قال فيه: (أُقرّ) فإنّه ما فعل شيئًا غير أنّه أقرّ في قلبه.

وأنتم تعلمون أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قارن بين أفعالنا، وبين أفعال الصّحابة.

أنا لست في موضع سرد الأدلّة الدّالّة على أنّ القلب له أعمال، لكن أذكّركم بأشياء أنتم تعرفونها تمامًا: لمّا قارن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بين أفعالنا وأفعال الصّحابة، وقال: «فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ»[1] ما هو السبب؟ الإيمان الّذي في قلوب الصّحابة، يعني الّذي في قلوبهم وليس الّذي في العمل، وهو أهمّ أسباب مضاعفة الأجور.

فأنت حين تُنكرين بأنّ القلب له عمل ستنُكرين بابًا واسعًا جدًّا من الدّين. لكن سنرجع مرّة ثانية نقول: الخواطر السّريعة، الغير مستقرّة، الّتي تخطر فتذهب؛ من رحمة الله -عزّ وجلّ- أنّ العبد لا يُحاسب عليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠٣).

لكن ألم يرد في الحديث: أنّ الرّجل عنده مال وسلّطه «على هلكته»[1] له أجر؛ وبعد ذلك من يشاركه في هذا الأجر؟ الّذي تمنّى مثله، إذًا معناها: إذَا تمنّى وكان صادقًا في أمنيته، شاركه الأجر فأصبح مثله في الأجر، وإن كان في المضاعفة ليس مثله، لكن في النّهاية في الأجر مثله؛ فهذا مبنيّ على تمنّي القلب.

والثّاني كذلك! لأنّه ذُكر: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ»[2] نفرين:

الأوّل فيهم عنده مال وخير وسلّطه على هلكته.

والثّاني تمنّى أن يكون عنده مال وخير ويُسلّطه مثله، إذًا: «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ» يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

والثّاني على الوزر، والثّاني تمنّى أن يكون مثله، فقال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: «فهما في الوزر سواء» على عمل القلب، ليس خاطرة تمُرّ ولا تستقرّ؛ وإنّما إرادة مستقرّة في نفسه! يعني كلّما رأت أهل الباطل تمنّت أمنية صادقة أن تكون من أهل الباطل! أن تكون مثل هؤلاء الّذين كذا! أو كذا! أو كذا! فإذًا: «فهما في الوزر سواء»!

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣) متن الحديث: «سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صلّى الله عليه وسلّم-: لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا))

(٢) أخرجه التّرمذي (٢٣٥٣) متن الحديث: «وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))

ومن أجل ذلك فإنّه من يترك قلبه يسرح ويمرح، وبعد ذلك يقول لك: (لا! ربّنا لا يحاسب على ما في القلب!) خراب الإيمان مبدؤه خراب القلب!

وذكر الله، من أهمّ فوائده: زيادة الإيمان. أين؟ في أي مكان يكون زيادة الإيمان؟ في القلب؛ فهو مستودع الإيمان، وبالعكس فإنّه هو مستودع النّفاق والكفر! فلابدّ أن نعرف أنّ القلب يعتقد ويعمل. وفي الحساب ماذا نعتقد ما دام ربّنا ينظر إلى قلوبنا؟ ستعتقدِين بأنّه سيُحاسب أم لا يُحاسب؟ سيُحاسب القلب طبعًا.

إذًا الخواطر الّتي تمرّ ولا تستقرّ -من فضل الله- فإنّ الله -عزّ وجلّ- يرحمنا ولا يحاسبنا عليها؛ لكن الّذي يبقى ويدور، ويدور ويكون مبدأ وأسلوبًا في التّفكير حتّى لو أتت آثاره ثواني! المهمّ هذا من البداية موجود في القلب؛ نحاسب عليه. يعني الآن لو تريدين تعريف الحسد كما سيأتينا من الكبائر: الحسد ما هو؟ تمنّي زوال النّعمة!

أنا سأسلّم لهذا التّعريف -ليس هناك مشكلة- وحين يأتي **"الحسد"** نتفاهم عليه ونفكّكه تمامًا! لكن سنقول: تمنّي زوال النّعمة عن الغير، هذا هو المحفوظ تمامًا. هذا التّمنّي ما هو؟ التّمنّي فقط وحده لو أخذنا بهذا التّعريف؟ عمل قلبيّ! فإذَا تمنّى ولو لثانية واحدة أن تزول النّعمة عن غيره؛ فإنّ هذا حسد! إذًا عمل قلبيّ أم ليس بعمل قلبيّ؟

عمل قلبيّ. وهو أصلًا ما وصل أن يتمنّى إلّا من أجل أن يطفئ النّار الّتي في قلبه من الحسد! وإلّا فإنّه قبل ذلك رأى بأنّ النّعمة لا تنفعه!

يعني مقهور أنّ عنده نعمة! فمن أجل أن يُهَدِّئ نفسه ماذا يفعل؟ يتمنّى زوالها! المهمّ في النّهاية؛ فإنّك لا تستطيعِين أن تفسّرِي كلّ هذه الكبائر إلّا بأنّها: **عمل قلبيّ**.

أنتم الآن لا تفكّروا في الكفّارات ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل في أنفسنا؟ ونحن أصلًا درسنا لأجل أن نصل لهذا؛ لكن سلّموا بأوّل نقطة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» يعني تستطيعون أن تخدعوا النّاس كلّهم بأنّكم: مصلّون! صائمون! عابدون! نستطيع أن نخدع النّاس بهذا! لكنّ الله ينظر إلى ما في القلب من الإيمان! وينظر إلى ما في القلب من التّقوى! وينظر إلى ما في القلب من الجهاد!

ألم نبدأ بسورة العنكبوت في الكلام السّابق؟ هيّا اختموا سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1] فإذًا ليس الّذين أنجزوا! لا! لا! وإنّما: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ والله -عزّ وجلّ- شكور حليم، والله -عزّ وجلّ- غفورٌ شكور، يعني يحلم عليك، وأنت تجاهدين تجاهدين، ثمّ يشكر جهدك، والله -عزّ وجلّ- غفور شكور، حتّى حين يحصل منك تقصير فكونك تُجاهدين سيشكر لكِ هذا الجهاد.

المهمّ، أنتم لا تهربوا من الحقيقة؛ لأنّكم تشعرون بأنّه لا يوجد مَخْرَج! بل هناك مَخْرَج -الحمد الله- ورحمة الله واسعة؛ وهذا ليس تضييقًا لرحمة الله؛ إنّما لابدّ أن نضع أيدينا على المكان الّذي فيه

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

الوجع؛ من أجل ألّا يبدأ ينتشر وينتشر، ويموت القلب ونحن مُسَلِّمِين ونرى أنفسنا جيّدين!

ولا تنسوا أنّ أكبر مثل عندكم على هذا: هو إبليس الّذي استمرّ سنينًا عابدًا حتّى ارتفع إلى منزلة الملائكة! ثمّ جاءه الابتلاء الّذي أظهر حقيقته: أنّه لا يعبد طلبًا لرضا الله! ولا طاعةً لله! ولكن من أجل أن ينتفش وينتفش! من أجل أن يجد نفسه مميّزًا عن غيره! من أجل أن يكون أحسن من غيره! يعني في الأصل باعثه على الطّاعة كِبْرٌ في نفسه! ما عرف يتميّز بأيّ شيء؟! واليوم هناك أناس كثيرون هكذا!

فمثلا: أصدقاؤها تميّزوا في كذا وكذا، فتقوم هي بحفظ القرآن من أجل أن تقول لهم: (أنتم فقط تحصّلون في الدّنيا لكن أنا في الآخرة! وأنتم لا تحصّلون شيئًا!) يعني من أجل أن تتكبّر عليهم تقول لهم: (أنا حافظة للقرآن)! فممكن يكون هذا!

ولذلك: فإنّ أوّل ثلاثة ستُسعّر بهم النّار حافظ القرآن حين يُؤتى به يذكّره ربّ العالمين بالنّعمة ويسأله؛ فيقول: (حفظته فيك) يعني إلى أن يصل إلى ربّنا وهو كذّاب! يقول: (حفظته فيك)! يقول الله عزّ وجلّ: «كَذَبْتَ»[1] حفظته ليُقال: حافظ! قرأتُه ليُقال قارئ! فيُسحب به إلى النّار.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦٣٨) متن الحديث: «عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ ، قَالَ : تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- ، قَالَ : نَعَمْ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- يَقُولُ : إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ

فإذًا معنى ذلك: أنّ هذا الفعل مستقيم؛ لكنّ المقصد القلبيّ غير مستقيم!

فإذًا اتّفقنا من الحديث: يعني مشينا ثلاث خطوات إلى أن وصلنا إلى هذه النّتيجة:

الخطوة الأولى: أنّ الله ينظر إلى القلب.

الخطوة الثّانية: وهذا يدلّ على أنّ القلب مكان للعمل والكسب؛ فيحصل عليه الإثابة.

الخطوة الثّالثة: إذَا كان الله ينظر إليه إذًا هو مكان للإثابة، يعني يحصل منه الكسب؛ الكسب يكون ماذا؟ إذَا كان القلب يعمل فإذًا الكسب يكون بماذا؟ بطاعات أو معاصي، يعني القلب يعمل طاعات أو يعمل معاصي؛

فإذا عمل معاصي، احسبي المعاصي:

١) فيها صغائر.

٢) وفيها كبائر.

٣) وفيها أكبر الكبائر.

فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...))

فإذًا الله ينظر إلى القلب؛ والخطوة الثّانية فهمنا: أنّه هو مكان للكسب؛ وإذا كان مكانًا للكسب فإنّ الأمر الثّالث: يكسب طاعات أو معاصي. إذًا هذا الحديث واضح الدّلالة.

إذًا الله ينظر إلى أيّ شيء؟ ويُثيب على أيّ شيء؟ ويُعاقب على أيّ شيء؟ على قلوبكم وأعمالكم؛ ولذلك الواجب: تزيين القلب للرّبّ. بماذا ستزيّنينه؟ بشيئين:

١) بتطهيره من المعاصي، كبيرها وصغيرها.

٢) وبتحليته بالطّاعات.

يعني المفترض أن تقومي بعمليّتين: التّخلية والتّحلية.

انظروا: أنتم تصوّروها هكذا مثل أيّ أحد يتزيّن، يعني إذَا تزيّنت في وجهها؛ ماذا ستفعل؟ تغسله أوّلًا.

فالقلب ماذا سنفعل به؟ نطهّره من المعاصي كبيرها وصغيرها؛ وسنتّفق كيف ذلك؟ ولا يوجد تطهير من المعاصي كبيرها صغيرها إلّا حين تعرفِينها!

وكنّا اتّفقنا في الحديث السّابق، لمّا قال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- : «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ..» إذًا من الشّرع تعلّم الكبائر.

ثمّ بعد ذلك سنتّفق كيف نتطهّر، لكن المهمّ من أجل أن تزيّني قلبك لربّك:

الشّأن الأوّل: التّخلية: طهّريه من الذّنوب كبيرها وصغيرها.

الشّأن الثّاني: التّحلية: حَلِّه بالطّاعات.

وهذا أيضًا -إن شاء الله- سيأتي عند كلّ موطن بما يناسبه.

إذًا الحمد الله ظهرت لنا دلالة الحديث الأوّل، نرى دلالة الحديث الثّاني:

التّعليق على الدّليل الثّاني: (١) صلاح القلب أوّلًا وبعده يصلح البدن

(وعن النّعمان ابن بشير -رضي الله عنه- مرفوعًا: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[1].).

(وعن النّعمان ابن بشير -رضي الله عنه- مرفوعًا) يعني مرفوعًا إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» دعونا نرى دلالة هذا الحديث الواضحة على الكبائر: كيف دلَّ الحديث الآن على أنّ هناك كبائر؟

أوّلًا: دعونا نقرّر التّقرير الأساسي وهو: أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- علّق صلاح الجسد وفساده بصلاح القلب وفساده؛ إذًا الصّلاح والفساد الجسديّ معلّق بالقلب! إذًا من المؤكّد أنّه هو الأساس! لماذا تأكّدتِ أنّه هو الأساس؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢).

⇐ في الحديث الماضي: الله لا ينظر إلّا إلى القلب والأعمال الصّادرة منه.

⇐ وأمّا في هذا الحديث: فإنّ الصّلاح معلّق بأيّ شيء؟ الصّلاح معلّق بصلاح القلب! والفساد معلّق بفساد القلب!

هكذا اتّفقنا على هذه النّقطة الأساسيّة: أنّ صلاح القلب سبب لصلاح البدن، وفساد القلب سبب لفساد البدن.

التّعليق على الدّليل الثّاني: (٢) صلاح البدن إشارة إلى صلاح القلب

فإذًا الآن لو ظهر فساد في البدن سيشير إلى:

- إذَا ظهر مؤشّر للفساد في البدن؛ فإنّه يشير إلى فساد في القلب!
- وإذا ظهر صلاح في البدن؛ فإنّه يشير إلى صلاح في القلب!

فالمسألة الآن تبدأ: من القلب إلى البدن؛ ويصبح البدن مؤشّرًا على القلب.

وهذه فيها تفاصيل كثيرة؛ لكن سأفترض الآن: أنّه ظهر لي فساد في البدن، يعني مثلًا نفترض: كسل عن الطّاعة: فإنّ الّذي يكسل عن الطّاعة سيكون هذا الكسل مؤشّرًا لشيء في قلبه!

ماذا تفعل حين يصير هناك مؤشّرًا لفساد في القلب؟ تعالجه.

سأبدأ بهذه النّقطة: لأنّها من أكثر مداخل الشّيطان علينا! المشكلة أنّ النّاس حين يجدون فسادًا في قلوبهم -كيف عرفوا أنّ هناك فسادًا في قلوبهم؟ لأنّهم رأوا فسادًا في بدنهم- فماذا يفعلون في نفسهم؟ ييأسون من روح الله مباشرة!

وهذا مثل: إنسان يجد يده متعبة وثقيلة عليه فيقوم بقطعها! فهذا هو الحلّ عنده! فالمشكلة أنّ هذا هو فكر الإرجاء. هل تعرفون المرجئة؟ هذا بالضّبط فكرهم.

كيف يكون هذا الفكر؟ أنّه إمّا أن أكون في قمّة الصّلاح التّامّ، وإمّا أن أكون انتهيت! فلا أقبل من نفسي أنّها تخطئ وتمرض وأعالجها! وسيأتينا -إن شاء الله- لأنّ هذا المرض وهو: مرض اليأس من روح الله! من أخطر الأمراض القلبيّة! فهو أخطر من كسلك عن الطّاعة! بمعنى: أنّك لو كسلت عن الطّاعة تحسّس قلبك ما الّذي حصل؟ ما هو النّاقص؟ استغفر! تب! اطلب من ربّك زيادة الإيمان! اعمل الأعمال اليسيرة السّهلة! وبعد ذلك ساعد نفسك إلى أن تصل إلى الصّعب أو الثّقيل عليك.

سُسْ نفسك إلى أن تصل إلى العمل، لا أن تقطعها بحيث أن تقول: (نفسي ما فيها أمل! ولو كانت مسألة فيها دنيا لذهبت فورًا وجريت عليها! لكن لأنّها آخرة وما جريت فإذًا أنا لا أساوي شيئًا! إذًا أنا صفر! إذًا.. وإذًا..) فصرت غنيمة للشّيطان!

إنّ الرّجاء: عبادة بنفسه؛ فيبقى الإنسان على أمل.

المهمّ: هذا الكلام نقوله ابتداء؛ لأنّ النّاس في هذا الأمر متطرّفين تمامًا على طرفين:

- جماعة لا يهمّهم قلبهم يسيرون مثلما يكون!
- وجماعة أوّل ما يرون فسادًا في أبدانهم؛ يحكمون على قلوبهم بالفساد! وبعد ذلك ييأسون من روح الله! وهذا لا يحصّل الإنسان من وراءه إلّا التّخبّط مع الشّيطان! فقط هذا الّذي سيحصّله! والشّيطان يريد هذا الصّيد؛ لأنّه يكون صيدًا سريع الأثر!

المهمّ: أنت سُسْ نفسك! سُسْهَا! يعني كأنّها خيل وأنت تسوسها. إذا وجدتها مالت إلى اليأس، ارجع بها إلى الرّجاء. وإذَا وجدتها مالت إلى الرّجاء، خوّفها من معصية الله، لا أن تفلتها على أحد الجنبين، وكلّ الحياة سياسة للنّفس.

ألم يقل ربّنا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فأنت لا زلت تزكّي، تزكّي فيها إلى أن تصلح.

وأنا أقول هذا الكلام لأنّنا دائمًا حين نجد هذا المؤشّر فإنّها تحصل لنا هذه المشكلة: إمّا جماعة ييأسون من روح الله! وإمّا جماعة يأمنون من مكر الله!

دعونا نرجع مرّة أخرى للحديث ودلالته: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» يعني هكذا فهمنا أنّه هو الأساس، المسؤول عن صلاح البدن، وبالعكس إذا صلُح البدن دلَّ على صلاح القلب.

التّعليق على الدّليل الثّاني: (٣) المؤمن يفترق عن المنافق في أنّه يصلح بدنه ظاهرًا وباطنًا مراقبةً لنظر الرّبّ إليه

هنا نسأل عن النّفاق: النّفاق كيف تفهمِينه من الحديث؟ ألسنا نقول إذا صلُح الجسد دلَّ على صلاح القلب؟ فالمنافقون لهم صورة ظاهرة -فيما يظهر- هل هذا دلَّ على صلاح قلوبهم؟

لا! فإذًا ماذا سيكون؟ المنافق يختلف عن المؤمن في أنّ المنافق وقت اختلاطه بالخلق يُظهر الصّلاح! وأمّا المؤمن فإنّ صلاح بدنه في الظّاهر والخفاء، يعني بدنه صالح في قيام اللّيل الّذي لا أحد يعلم عنه أبدًا، وبدنه صالح في صلاة الظّهر الّتي تكون مع النّاس، بينما المنافق بدنه صالح، دعونا نقول: في صلاة الفجر:

مثلًا: امرأة في صلاة الفجر، بدنها صالح وهي في بيتها لا أحد يدري عنها صلّت أم لم تصلِّ، وبدنها صالح في صلاة الظّهر مع زميلاتها في المدرسة؛ معناها: في الخفاء والظهور بدنها صالح.

إذًا المنافق يختلف عن المؤمن في أنّ المقياس عنده صلاح الظّاهر اهتمامًا بنظر النّاس وليس اهتمامًا بنظر الله.

المنافق بالعكس: في صلاة الفجر ينام عنها ويتكاسل ويتركها، وحين يأتي في صلاة الظّهر يصبح أوّل واحد ويهتمّ بنظر النّاس!

يعني هذا هو المقياس الخطير: صلاح الظّاهر اهتمامًا بنظر النّاس وليس اهتمامًا بنظر الله! من أجل ذلك تركّبين الحديثين على بعض: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»: الصّالح هو الّذي يهتمّ بنظر الرّبّ، فيُصلح بدنه تبعًا لصّلاح قلبه.

خلاصة التّعليق على الدّليل الثّاني:

القلب يعمل ويرتكب الكبائر وهو الأساس في صلاح البدن وفساده

فإذًا هكذا استفدنا ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: أنّ صلاح القلب أوّلًا وبعده يصلح البدن.

الفائدة الثّانية: إذا صلح البدن أشار إلى صلاح القلب.

الفائدة الثّالثة: أنّ المؤمن يفترق عن المنافق في أنّه يصلح بدنه ظاهرًا وباطنًا مراقبةً لنظر الرّبّ إليه.

ما هو مقياس صلاح القلب؟

اكتساب الطّاعة بعد الطّاعة دليل على صلاح القلب.

سنرجع مرّة ثانية نقول: فإذًا ما هي علاقته بكبائر القلوب؟

هذا الحديث أوضح من السّابق في الدّلالة؛ إذًا ماهي دلالة هذا الحديث على كبائر القلوب؟

«أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً..» الآن نحن نناقش **المُضْغَة** الّتي هي: القلب: إذَا صلحت هذه المضغة «صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ».

الآن دعونا نضع مقياسًا لصلاحها، ومقياسًا لفسادها: ما هو مقياس صلاح القلب؟ اكتساب الطّاعات.

متى يكون القلب صالحًا؟ حين يكتسب الطّاعة؛ الطّاعة بعد الطّاعة دليل على صلاح القلب.

ما هو مقياس فساد القلب؟

ارتكاب الكبائر دليل على فساد القلب.

متى يكون القلب فاسدًا؟ إذَا ارتكب الكبائر! يعني هكذا أثبتنا أنّ القلب يرتكب كبيرة ولذلك يفسد! ويصلح متى؟ حين يدخل إليه الإيمان ويزيد، ويزيد؛ ويفسد متى؟ حين ينقص الإيمان؛ الإيمان ينقص بماذا؟ بالمعاصي. ويزيد بماذا؟ بالطّاعات.

إذًا بهذا أَقْرَرْنا أنّ القلب يعمل ويرتكب الكبائر فكما أنّ هناك كبائر للبدن هناك كبائر للقلب.

فإذًا هكذا يفسد! وهكذا يصلح! إذًا بهذا أَقْرَرْتِ أنّ القلب يعمل ويرتكب كبيرة! يعني لا تأتي تقولِين: (لا! القلب لا يعمل!) وهذا الّذي

يهيج علينا في داخلنا ويركّز عليه الشّيطان في الوسوسة! كلّ هذا نعتبره لا شيء! وأصلًا لا تحصل المعاصي البدنيّة إلّا بعد كثير من المناقشات القلبيّة، ثمّ بعد ذلك يقترف الإنسان المعصية البدنيّة غالبًا! يهوّنها الشّيطان إلى أن يفعل المعصية!

دعونا نتذكّر إخوة يوسف الآن: إخوة يوسف الآن جماعة اجتمعوا على قتل أخيهم! وهذه كبيرة عظيمة من كلّ الوجوه! لكن ما الّذي كان في قلوبهم لمّا ذهبوا لقتله؟ الحسد، هذا الباعث لكنّهم هل كانوا يشعرون أنّهم سيقتلونه ويصبحون مجرمين؟ لا! لا! ما كانوا هكذا يفكّرون! فأوّل شيء: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾[1] فهذه هي المصلحة الأولى.

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾[2] انظري كيف يكون القلب حين يأتي الشّيطان فيُيسّر الباطل للإنسان؟ وسوس له بأيّ شيء؟ وسوس له بأنّه: (سيكون صالحًا بعد ارتكاب الجريمة)! وهذا سَهَّل فساد القلب!

وانظري إلى الصّحابة الكرام في أُحد: في أُحد الصّحابة الكرام حين عصى جماعة منهم رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- معروفة القصّة: الرّماة الّذين تركوا أماكنهم.

---

(١) يوسف: ٩.

(٢) يوسف: ٩.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾[1] أين العمل القلبي الآن؟ ﴿يُرِيدُ﴾ يعني ما نزلوا من مكانهم إلّا بسبب إرادة الدّنيا!

إرادة الدّنيا هذه أين مكانها؟ في القلب! فحين يكون في القلب اعتقاد فاسد؛ فإنّه سيؤدّي إلى فساد العمل، يعني غالبًا المعاصي قبل أن تصبح عادة عند الإنسان -لأنّه بعد ذلك حين يفسد القلب ويفسد البدن فإنّه لا يحتاج إلى محاورات ومشاورات والعياذ بالله يدخل في المعصية بدون محاورات ولا مشاورات!- حين يبدأ يدخل في المعاصي، ما هي نقطة البداية؟ فساد في القلب؛ وعندك مثالين الآن:

المثال الأوّل: إخوة يوسف: إخوة يوسف كيف وسوس لهم الشّيطان؟ هم الآن أبناء نبيّ، ومعظّمين لله، لكنّ الشّيطان غلبهم في تلك اللّحظة، ومن أجل أن يهوّن عليهم المسألة، قال لهم: (ستكونون صالحين!) يعني سترجعون وتتوبون وينتهي الأمر!

وهذا مثل غالب النّاس في الخطوة الأولى في الذّنوب، الشّيطان يقول لهم: (فقط خذوا الذّنب وبعد ذلك توبوا!)! وهذا مكر الشّيطان! ويكون وراء هذا الوساوس شقاء عظيم للإنسان؛ لأنّه غالبًا حين يدخل الإنسان إلى المعاصي بهذه الطّريقة: بطريقة عقد القلب على إرادة المعصية مع الاستهانة بنظر الرّبّ: (أنّه بعدما أنتهي من المعصية سأتوب!)! غالبًا شقائه يطيل هذه المعصية كما طال شقاء إخوة

(١) آل عمران: ١٥٢.

يوسف! إلّا أنّ الله توّاب رحيم -الحمد الله ربّ العالمين- فإذًا هذا المثال واضح.

المثال الثّاني: في أُحد: أيضًا واضح: أنّ القلب حين أراد هؤلاء الصّحابة الكرام أن ينزلوا إلى الغنائم ماذا حصل في قلوبهم أوّلًا؟ أرادوا الدّنيا، حين أرادوا الدّنيا تركوا أماكنهم. (أرادوا الدّنيا) هذه -كما اتّفقنا- أين مكانها؟ في القلب. وفي كتاب الله -عزّ وجلّ- كثير من هذا المعنى: معنى الإرادة، فتجد المسائل تبدأ بالإرادات المستقرّة الّتي تسبّب أعمالًا، ومن ثمّ يصلح القلب إذا أراد الآخرة، ويفسد إذا أراد الدّنيا، وهذا بنفسه متكرّر في كتاب الله.

خرجنا من هنا بنتائج مهمّة: مُجملها: أنّ هناك كبائر للقلب كما أنّ هناك كبائر للبدن. نحن غالبًا حين نأتي نقول: (ما هي الكبائر؟) يأتي الإنسان يقول: (الزّنا، الرّبا، شرب الخمر، عقوق الوالدين..) صحيح لكن انظري كيف رتّب الشّيخ؟ بدأ بماذا؟ بكبائر القلب؛ لأنّ القلب هو الأساس في صلاح البدن أو فساده! لأنّ الإنسان لا يدخل في المعاصي البدنيّة إلّا حين يضعف قلبه أوّلًا! كلّ هذا الكلام هو نفسه: أنّ القلب هو الأساس.

هل واضح كيف أنّ تقسيم الشّيخ لأسماء الأبواب غاية في الدّقّة؟ ترتيب الأبواب بديع جدًّا ويسير فبدأ بكبائر العضو الأهمّ القلب ثمّ انتقل إلى اللّسان.

دعونا سريعًا نمرّ على الأبواب الّتي بعدها، فقط نقرأ أسماء الأبواب من أجل أن نرى نماذج على الكبائر القلبيّة -وإن شاء الله- الأسبوع القادم نستفتح الكبيرة الأولى.

("باب ذكر الكِبر"، "باب ذكر العُجب"، "باب ذكر الرّياء والسّمعة"، "باب الفرح"، "باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله"، "باب ذكر سوء الظّنّ بالله"، "باب ذكر إرادة العلو والفساد"، "باب العداوة والبغضاء"، "باب الفُحش"، "باب ذكر مودّة أعداء الله"، "باب ذكر قسوة القلب"، "باب ذكر ضعف القلب").

(باب ذكر الكِبْر) إذًا الكبيرة هنا: الكِبْر؛ وهو بالاتّفاق عمل قلبيّ.

(باب ذكر العُجْب) والعُجْب عمل قلبيّ.

(باب ذكر الرِّيَاء والسُّمْعَة) والرِّيَاء والسُّمْعَة: إرادتان قلبيّتان.

(باب الفرح) والفرح هنا يُقصد به: الفرح المذموم؛ وهو أيضًا عمل قلبيّ.

(باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله) اليأس: عمل قلبيّ، الأمن: عمل قلبيّ.

(باب ذكر سوء الظّنّ بالله) سوء الظّنّ: عمل قلبيّ.

(باب ذكر إرادة العُلو والفساد) إرادة العُلو: عمل قلبيّ.

(باب العداوة والبغضاء) عمل قلبيّ.

(باب الفُحْش) يعني باب محبّة الفُحْش، المحبّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1] يعني محبّة الفُحش يُقصد وليس نفس فعل الفُحش! ماذا يعني محبّته؟ يعني يجلس في بيته وما وطأت قدمه مكان الفُحش، لكنّه يُحبّ أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا! هذا قد ارتكب كبيرة بدون أن يتحرّك من مكانه! سيأتينا الكلام عن الباب.

(باب ذكر مودّة أعداء الله) هذا مثله: مودّة أعداء الله، يعني فقط محبّتهم.

(باب ذكر قسوة القلب).

(باب ذكر ضعف القلب).

هكذا انتهينا من أبواب الكبائر القلبيّة، جاء بعدها أبواب كبائر اللّسان.

هل واضح كيف أن تقسيمه غاية في الدّقّة:

- فأوّل شيء العضو الأهمّ: القلب له كبائر، وعدّها: (١، ٢، ٣).
- بعد ذلك انتقل من القلب إلى اللّسان.

وأنتم تصفّحوه سترون له ترتيبًا بديعًا جدًّا ويسيرًا.

---

(١) النّور: ١٩.

ولازلنا نكرّر: هذا يجب أن يُشاع بين النّاس؛ لأنّ الناس ممكن أن لا يرون بأنّهم اقترفوا في حقّ الله جريمة إلّا إذا اقترفتها أبدانهم! ولا يرون لقلوبهم أيّ جرائم! وتجلس في المجلس تحكي عن فاحشة حصلت في مكان بكلّ تفصيل، ولا تدري أنّها في قلبها قبل لسانها قد ارتكبت كبيرة من كبائر الذّنوب! مجرّد التّهاون في إشاعة الفاحشة يُعتبر كبيرة! كيف لو أكملتها بالكلام؟! فتصير قد جمعت بين كبيرة قلبيّة وكبيرة لسانيّة!

وغير ذلك كثير من التّفاصيل الّتي سيأتينا -إن شاء الله- الكلام عنها؛ ونرى كيف أنّ الواقع ينشر مثل هذه الأمور الخطيرة!

نسأل الله -عزّ وجلّ- بمنّه وكرمه أن يحفظنا من الكبائر، وأن يجعلنا من أهل الإيمان والتّقوى، اللّهمّ آمين.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الخامس

٢ صفر ١٤٤٠هـ

باب الكِبْر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللّهمّ طهّر قلوبنا من الأمراض، وأصلح نيّاتنا وذرّيّاتنا، واجعلنا ممّن خرج خالصًا لوجهك؛ فارتفعت درجاته، وقُبلت أعماله، اللّهمّ آمين.

لازلنا نتناقش في هذا الموضوع المهمّ وهو: موضوع **"الكبائر"** ووصلنا إلى الكلام حول: **"كبائر القلب"** والمطلوب من المؤمن تطهير قلبه منها، فيُطهّر قلبه بالإيمان من هذه الأمراض.

ومن حيثيّات التّطهير أو من السّياسات الّتي من المفترض أن يسوس الإنسان بها نفسه لتطهير قلبه من الأمراض: التّعرّف على الأمراض بشكل تفصيليّ، يعني لا تمرّي على أمراض القلوب بشكل إجماليّ ثمّ لا تستطيعِين أن تعالجي قلبك إذا ظهر هذا المرض فيه!

ما هي النّتيجة المهمّة الّتي وصلنا لها في "باب كبائر القلب"؟

أنّ القلوب تكسب.

وأنّ القلوب تقع منها الكبائر كما أنّ الأبدان تقع منها الكبائر.

« باب ذكر الكِبْر»

التّعليق على تسمية "باب ذكر الكِبْر"

بدأ الشّيخ بذكر أعظم كبيرة وهي: كبيرة **الكِبْر**.

فإذًا هو في البداية بيّن لك: أنّ القلوب ترتكب الكبائر.

ماذا يتبادر لكِ حين تسمعين كلمة كبيرة؟ غالبًا يتبادر لنا: (الرّبا، الزّنا، شرب الخمر، القتل...) لكنّ الكبائر العظيمة الّتي هي أعظم الكبائر؛ إنّما هي الّتي تبدأ من عند القلب.

سنرى لماذا هي من أعظم الكبائر؟ ولماذا هي تفوق في التّرتيب بقيّة الكبائر فنبدأ بها قبل القتل! وقبل شرب الخمر! وقبل كلّ هذه الّتي نعتبرها من الكبائر؟ لكن في ترتيب أوّلي في نظرك للكبائر.

سنبدأ الآن بما ذكره **"باب ذكر الكِبْر"** يعني الأدلّة الّتي دلّت على أنّ **الكِبْر** كبيرة.

تنبيه: دراستنا في هذه اللّقاءات ستكون على الإجمال وليس التّفصيل، وسنحاول مجتهدين أنّنا في كلّ لقاء نُنهي كبيرة على وجه الإجمال، وكلّ المسألة تكون عبارة عن تعليقات على النّصوص.

التّعليق على الدّليل الأوّل: (١) إنّ الله لا يحبّ فاعل هذا الفعل

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر: ("باب ذكر الكِبْر"، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [١].

(باب ذكر الكِبْر) المقصود بذلك الأدلّة الّتي وردت في الكتاب والسّنّة في بيان كبيرة **الكِبْر**. ونبتدئ بالآية، هل ترون في أيّ سورة الآية؟ في سورة النّساء، وفي سورة الحديد [٢].

في سورة النّساء في سياق الكلام عن أوامر الله وما ألزمه -سبحانه وتعالى- خلقه من امتثال أمره، يعني بداية السّياق: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[٣] مجموعة أوامر إلى أن نصل إلى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ يعني

أُمر الخلق: بالإحسان في عبادة الله والإحسان إلى خلق الله.

وفي نفس الوقت نُهوا: عن أن يكونوا مختالين فخورين.

نرى كيف نُهوا عن أن يكونوا مختالين فخورين بأيّ صيغة؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾

وقد مرّ معنا أنّ هناك صيغا تعرفين بها المنهيّات خصوصًا: الكبائر.

من الصّيغ الّتي تعرفين بها المَنْهِيَّات:

---

(١) النّساء: ٣٦.

(٢) الآية (٢٣) في سورة الحديد: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾

(٣) النّساء: ٣٦.

أن تسمعِي عن عمل: إنّ الله لا يحبّه: وإذا كان الله -عزّ وجلّ- لا يحبّ العمل أو لا يحبّ العامل، إذًا معناه: أنّ هذا العمل كبيرة عظيمة.

فالآن الدّليل ظهر فيه: إنّ الله لا يحبّ من كان هذا وصفه، يعني فاعل هذا الفعل. ما هما الفِعْلاَن؟

١) الاختيال.

٢) والفخر.

﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾: أمّا ﴿مُخْتَالًا﴾ فسيتبيّن في الباب الّذي بعده، الّذي هو (باب ذكر العُجْب) الباب الّذي بعده الكلام عن **العُجْب**، فهناك: **الكِبْر** وهناك: **العُجْب**.

مقارنة بين الكِبْر والعُجْب؟

العُجْبُ: قد يقع الإنسان في العُجْب بنفسه وعمله فلا يكون مخلصًا لله ولو كان خاليًا ليس معه أحد.

العُجْبُ لا يحتاج غير الإنسان نفسه فقط! يعني يقع الإنسان في **العُجْب** ولو كان وحده!

الكِبْر: من أجل أن يكون هناك كِبْر لابدّ من أطراف أخرى حتّى يتكبّر عليها.

أمّا **الكِبْر** فلابدّ من أطراف أخرى، يعني لابدّ من أجل أن يكون هناك **كِبْر** أن **يتكبّر** على أحد!

لكنّ **العُجْب** معناه: يُعجب بنفسه فلا يحتاج أن يكون معه أحد، يعني ممكن أن يكون خاليًا، وبدلًا من أن يكون مخلصًا لله فإنّه يكون معجبًا بأعماله! **فالعُجب** لا يستلزم أن يكون هناك أحد معه لكنّ **الكِبْر** لابدّ أن يكون معه أحد. فإذًا **العُجْب** سنتكلّم عنه -إن شاء الله- في الباب القادم.

ما هو تعريف الفخور؟

الفخور هو من افتخر على عباد الله بما أنعم الله عليه.

﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ما المقصود بفخور؟ ﴿فَخُورًا﴾ هنا يُقصد به: من مدح نفسه على وجه الفخر على النّاس؛ **فتكبّر** على عباد الله.

ودعونا نقول جملة من أجل أن نحدّد العامل أكثر:

الفخور: هو من افتخر بما أنعم الله على عباد الله، يعني بما أنعم الله عليه هو.

ما هو أصل المسألة عند الإنسان الفخور؟

أصل المسألة عند الفخور أن يكون عنده نعمة من عطايا الله لا حول له فيها ولا قوّة!

وهذا الأصل في النّعمة، وهذا الأصل في كلّ نعمة، ولذلك حين نأكل من فضل الله ومن خير الله نقول: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ»[1]

ما هي العوامل الثلاثة الّتي تجعل الإنسان متكبّرًا؟

أن يكون الإنسان عنده نعمة لا حول له فيها ولا قوّة فَيَشْعُر بتميّزه عن غيره رادًّا النّعمة إلى نفسه فيمدح نفسه بها تصريحًا أو تلميحًا.

مهما كنت تعتقد أنّك اشتغلت وأَتَيْتِ بأموال؛ فهو في الحقيقة من غير حول منك ولا قوّة. فإذًا كلّ النّعم لها هذا الوصف: أنّ المُتَنَعِّمَ بها ما به؟ لا حول له فيها ولا قوّة.

إذًا هذا العامل الأوّل: أنّ عندك نعمة لا حول لك فيها ولا قوّة.

يأتي العامل الثّاني: فَيَشْعُر الإنسان بتميّزه عن غيره، رادًّا النّعمة إلى نفسه! يعني هو يتصوّر أنّها من عنده!

يأتي العامل الثّالث: فيمدح نفسه بها تصريحًا أو تلميحًا، يعني ليس شرطًا أن يكون تصريحًا فممكن أن يكون بالتّلميح! ويكون في هذا تابعًا للشّيطان! يعني يكون إِمَامَهُ في هذا الشّأن الشّيطان؛ لأنّ الشّيطان في "القصّة المعروفة في خلق آدم" قال لمّا أمره الله -عزّ وجلّ- بالسّجود وهو كان مِمَّن عَبد الله عبادة أوصلته أن يرتفع فيصبح مع الملائكة! انظري كيف هذه العبادة الطّويلة المميّزة الّتي رفعته وأوصلته إلى أن

---

(١) سنن التّرمذي (٣٥٣٣) متن الحديث: «عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- : مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ : الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

يكون مع الملائكة! وإلاّ فإنّه من الجنَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[1] كما تقرؤون في الكهف.

التّعليق على الدّليل الأوّل: (٢) أنا خيرٌ منك

الآن ما الّذي منعه من السّجود؟ ما هي العلّة؟

حين أتى يُعلّل امتناعه عن السّجود قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[2] فهذا هو الّذي يراه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. إذًا ما الّذي يراه الإنسان في نفسه لكي يصير **متكبّرًا**؟ يرى نفسه "خير!" دعونا نرى: لماذا رأى نفسه خيرًا منه؟

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وانظري فإنّ الفعل نفسه عجيب أنّه يفتخر به! يعني في الحالتين أنت تعرف أنّه ليس لك اكتساب! نعم، ربّنا الّذي خلقك! فشيء ليس لك فيه وتفتخر به؟! وأنتِ لو فكرتِ أكثر: فإنّه أصلًا ليس سببًا للفخر! يعني كونه خلقه الله من النّار، ما له باب من الفخر! لن ندخل في هذه التّفاصيل.

لكن دعونا نُركّز وننظر للكلمة الخطيرة: وهي: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾

والعامل الّذي سبّب له أن يرى بأنّه ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هو: نعمة يراها هو، يعني يراها أنّها نعمة، يرى أنّه مميّز بشيء! أنّه خُلق من النّار؛ فيرى أنّ هذا التّمييز يسمح له أن يفخر على آدم!

---

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) الأعراف: ١٢.

فإذًا تصوّري كلّ المواقف بنفس الطّريقة: هذا الآن من بني آدم لونه كذا، وهذا من بني آدم لونه كذا، والألوان عند النّاس لها إشاراتها!

المهمّ: فإنّه يأتي يقول له: (أنا خيرٌ منك) من أجل ماذا أنت خيرٌ منه؟ يقول: (أنا لونِي كذا! وأنت لونك كذا! أنا خيرٌ منك!)!

وهكذا بنفس الطّريقة: مثلًا: ترى نفسها جميلة، وهذه ليست جميلة! طويلة وهذه ليست طويلة!...بالتّرتيب هكذا وبكلّ التّفاصيل الّتي تتصوّرينها عن أشياء ربّنا أصلًا أعطاها للخلق: هذا ربّنا أعطاه فَهْمًا، وهذا ربّنا ما أعطاه فَهْمًا فيقول: (أنا خيرٌ منك أفهم وأنت لا تفهم! أنجح وأنت لا تنجح! أنا خيرٌ منك أنا عندي مال وأنت ليس لديك مال!)

قاعدة عامّة: (أنا خيرٌ منك) على هبة وهبها الله هي بالضبط: **الكِبْر**، نطق بها النّاطق أو بقي ساكتًا والأمر في قلبه! المهمّ: القضيّة أين؟ في أي كلمة؟ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذه هي الكلمة؛ على ماذا ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؟ على نعمة الله -عزّ وجلّ- وهبها.

هنا بالمناسبة ممكن يأتي سؤال: أهل الدّين الإسلامي ألا يرون أنفسهم أنّهم خير من أهل الباطل؟ أنت الآن ستمدحين الدّين نفسه، يعني ستقولين -ليس بتوصيف نفسك- (الّذين آمنوا) مثلما ورد في القرآن، الّذين آمنوا خير من الّذين كفروا، "من الّذين" هل واضح؟ يعني الممدوح: الدّين؛ والسّالكون عليه ممدوحون بقدر ما تمسّكوا وسلكوا.

إذًا **الكِبْر** في أصله: أن يرى الإنسان نفسه خير.

من أجل ألّا تنسيه أبدًا: كوني متذكّرة لموقف إبليس! ماذا قال؟ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لماذا أنت ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؟ السّبب: ما تبيّن لكم أنّه يرى أنّه أُنعم عليه أو مُيِّز بهذا: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فإذًا كلّ ممارسة فيها **كِبْر** إنّما هي سيرٌ على نهج إبليس.

الآن الأمر واضح بالنّسبة لأصل **الكِبْر**؛ فهذا أصله وبعد ذلك ستتبيّن ما هي فروعه الّتي ستخرج علينا...

الآن نرى النّصّ الثّاني:

التّعليق على الدّليل الثّاني: بيان الجزاء

(وقول الله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1]).

إذًا الله -سبحانه وتعالى- لا يحبّ من كانت هذه صفته.

وللكبر نوعان:

١) نوع مُخرج عن الملّة: وهذا فيه تنتفي محبّة الله تمامًا للعبد.

٢) ونوع لا يُخرج عن الملّة: هذا النّوع فيه نفي لمحبّة الله لكن ليس نفيًا تامًّا أو مطلقًا.

لو أتينا للآية: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ سيكون على أيّ نوع؟ النّوع الأوّل، بمعنى: أنّ ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ سيكون النّار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[2]

---

(١) النحل: ٢٩.

(٢) النحل: ٢٩.

إذًا هذا النّوع الأوّل الّذي فيه انتفاء للمحبّة تمامًا، ويكون فيه الكِبْر مُخرجًا عن الملّة.

أما **الكِبْر** الّذي يكون ليس مُخرجًا عن الملّة، فدعونا نرى الحديث التالي:

التّعليق على الجزء الأوّل من الدّليل الثّالث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»

(عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فقَالَ رَجُلٌ: يا رسول الله إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم [1].).

الحديث فيه جزآن:

نبدأ بالجزء الأوّل الّذي يُكمّل الكلام السّابق: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» وهذا هو الحديث الّذي يُعظّم شأن **الكِبْر**، ويؤكّد أنّ القلوب تكسب.

أين دلالة الحديث؟ «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ» قلبه ممتلئًا **كِبْرًا**؟ لا! وإنّما: «مِثْقَالُ ذَرَّةٍ»! ثمّ هذه: «مِثْقَالُ ذَرَّةٍ» أين مكانها؟ في القلب.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

إذًا هذا القلب يُعرض ما فيه ويُوزن؛ فإن كان في القلب «مِثْقَالُ ذَرَّةٍ»! وليس في المسلك أو في الجوارح وإنّما في القلب لو كان فيه «مِثْقَالُ ذَرَّةٍ» معناها: لم يمتلئ القلب **بالكِبْر** وإنّما ذرّة منه! بسبب هذه الذّرّة لا يدخل الجنّة!

السّؤال: هل لا يدخل الجنّة أبدًا أم لا يدخل الجنّة ابتداء؟ ماذا يعني لا يدخل الجنّة ابتداء؟ يعني هناك قوم الله -عزّ وجلّ- طهّر قلوبهم بسبب حرصهم على تطهيرها، وأنّهم أظهروا لربّهم ليلًا ونهارًا العناية والاهتمام بقلوبهم: راقبوها، تابوا، أنابوا، استغفروا، سألوا ربّهم أن يطهّر لهم قلوبهم، وعلموا، وتعرّفوا، وتعلّموا عن هذه الأمراض؛ فكان الجزاء أن يطهّر الله قلوبهم: فهؤلاء يدخلون الجنّة ابتداء بدون الدّخول إلى النّار، فهذا يسمّى الدّخول الابتدائي.

يعني ما أن تقوم السّاعة، ويُفرّق النّاس: فريق في الجنّة وفريق في السّعير إلّا ويدخل هؤلاء الجنّة مباشرةً؛ إمّا مثل السّبعون ألفًا الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب، أو غيرهم ممّن لا يدخل النّار، فهؤلاء يدخلون ابتداء.

وماذا عن الّذي يكون «فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ»؟ الأصل الآن: أنّه لابدّ أن يدخل النّار؛ هذا هو الأصل لكنّنا سنرجع ونقول: أنّ هؤلاء القوم مهما كبُرت سيّئاتهم وعظُمت كبائرهم فهم تحت رحمة الله؛ فلو أراد الله أن يرحمهم سيرحمهم، ومن الرّحمة أنّ النّار تكفّر هذه الكبائر.

فالنّاس الآن من أهل الإسلام ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأوّل: قسم يدخل الجنّة ابتداء: السّبب أنّ قلبه طاهر، وجوارحه مستقيمة «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»[1] فقلبه طاهر وجوارحه سليمة، هذا يدخل الجنّة ابتداء.

القسم الثّاني: هناك جماعة آخرون لابدّ لهم من تطهير -نحن نتكلّم عن الأصل- فربّما طُهّروا في سكرات الموت؛ فلم تبقَ عليهم خطيئة، وربّما طُهّروا في القبور؛ فيخرجوا وما عليهم من خطيئة، وربّما لا! رغم سكرات الموت فإنّه حصل لهم أمور تطهّر جزء من ذنوبهم، والقبور جزء من ذنوبهم، خرجوا يوم القيامة، العرصات نفسها وما يحصل فيها من أمور عظيمة أيضًا سبب لكفّارات الذّنوب، ومع ذلك ما انتهت ذنوبهم! بقي أن يدخلوا النّار من أجل أن يحصل لهم تطهير تامّ؛ فهؤلاء منهم الّذي في قلبه مثقال ذرّة من **كِبْر**.

وأنتِ تصوّري المسألة بمثال: يكون هذا من أهل الإسلام؛ لكنّ قلبه -والعياذ بالله- فيه **كِبْر** عظيم، كُفّر جزء منه بِمُكَفِّرَات: مرض قبل الموت، سكرات الموت، القبر، العرصات، بعد هذا كلّه بقي ذرّة.

الأصل على الحديث: أنّه لن يلحق القوم الّذين يدخلون الجنّة مباشرةً؛ ماذا سيحصل؟ لابدّ أن يدخل النّار فيُطهّر من هذه الذّرّة؛ فالنّار تُطهّر ذنوب الموحّدين؛ وأمّا الكافرون، المشركون، المنافقون نفاقًا أكبر لا تطهّرهم النّار.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٨٤).

فإذًا معنى ذلك: أنّ النّار في حقّ المؤمنين تطهير.

ولذا تصوّروا هذه المسألة: حين يمرض الإنسان في الدّنيا، أو تنزل عليه مصيبة في الدّنيا، أو تنقص منه احتياجاته في الدّنيا، يحصل له قهر، يحصل له أيّ شيء من هذا، لابدّ أن يقول لنفسه: (إنّ هذه طهارة، خير كثير) أفضل من أن أطهّر في النّار! لأنّ الموحّدين تطهّر ذنوبهم في النّار، يعني النّار مطهّرة لذنوب الموحّدين إذا لم تطهّرها مكفّرات الذّنوب السّابقة للنّار.

ونؤكّد أيضًا: أنّ هذا والنّاس كلّهم من أهل التّوحيد تحت رحمة الله.

فإذًا أهل الشّرك الأكبر، والنّفاق الأكبر، والكفر الأكبر، النّار في حقّهم عقوبة وليست تطهيرًا.

إذًا نحن سننظر إلى هذا النّصّ على أنّه من آثار رحمة الله، كلّ هذه النّصوص الّتي نقرؤها من آثار رحمة الله؛ لأنه قيل لك:

١) احمِ نفسك من نفسك!

٢) واحمِ النّاس منك!

٣) ولا تتعرّض لعقوبة الله.

كيف ستحمي نفسك من نفسك وتحمي النّاس من نفسك؟ في أن تمتنع عن **الكِبْر**:

- فتحمي نفسك: بمعنى: أنّك لا تترك نفسك الضّعيفة **تتكبّر** بأمر ليس من شأنها.

- وتحمي النّاس: من أن تمارس عليهم **الكِبْر**.

- ومن ثمّ تحمي نفسك من التّطهير بالنّار: فهذا من رحمة الله أن عَلِمْتَ أنّ **الكِبْر** لو كان في قلب العبد مثقال ذرّة منه فلا يدخل بسببها الجنّة.

ما معنى «لَا يَدْخُلُ»؟ هل لا يدخل أبدًا؟

لا يدخل الجنّة ابتداء، يعني مَنْ تَطهّر قلبه واستقامت أعماله يدخل الجنّة ابتداء، والّذي لم يحصل له هذا كما تبيّن لنا تفصيله.

فإذًا الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» استفدنا منه فائدتين:

الفائدة الأولى: أنّ القلوب تكسب؛ لأنّه قيل لنا: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ».

الفائدة الثّانية: تعظيم **الكِبْر**، يعني تعظيم شأن **الكِبْر** وأنّه شيء خطير لدرجة أنّ ذرّة منه في القلب كفيلة لمنع الإنسان من دخول الجنّة ابتداء. تخيّلي ذرّة! يعني هذه الذّرّة يكون الإنسان قد اكتسبها في موقف أو في لحظة! لكن انظري هذه اللّحظة كفيلة أن تمنعه من أن يدخل الجنّة ابتداء! يعني يا حسرة القلوب حين يكون بين العبد

وبين أن يدخل الجنّة ابتداء «ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ» لكنّها عند الله عظيمة.

وسنرى لماذا «ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ» تعتبر عظيمة؟

وسنرجع مرّة أخرى ونؤكّد على أنفسنا: الشّريعة حين أتت: أتت لتزكية النّفس وصلاحها وصلاح المجتمع. فالمنفعة من هذه الأمور كلّها ومن تحريمها: أن تزكو نفسك وأن تطْهُر نفسك؛ فالمصلحة عائدة عليك وعلى المجتمع الّذي تعيش فيه.

والله -عزّ وجلّ- عزيز -سبحانه وتعالى- لا تنفعه طاعة الطّائعين ولا تضرّه معصية العاصين، لابدّ أن تعرِفي عن ربّ العالمين هذه الصّفة!

ولذا حين تنظر في كتاب الله وتأتي عند الشّرائع فإنّه كثيرًا ما يتكرّر اسمي العزيز الحكيم، إشارة إلى أنّه -سبحانه وتعالى- ليس بحاجة لعبادتك؛ فلا تفهم خطأ! الله عزيز عزّة امتناع؛ فلا أحد يبلغ ضرّه فيضرّه -سبحانه وتعالى- ولا أحد يبلغ نفعه فينفعه، فلا عبادتك تنفعه، ولا معصيتك تضرّه، إنّما النّفع عائد إليك، والضّرّ عائد إليك، فكلّ هذا الممنوع والمحرّم والكبائر كلّه من أجل أن تزكو، من أجل إنسانيّتك، من أجل أن تحافظ على هذه الرّوح الّتي بين جنبيك وما تُزهقها! ولا تؤلمها! ولا تُعرّضها لما يُفسدها! لابدّ أن تعرف بأنّ الأمر عائد عليك!

فإذًا هذا الشقّ الأوّل من الحديث.

التّعليق على الجزء الثّاني من الدّليل الثّالث: (١) «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»

انظر الآن إلى الصّحابة الكرام وموقفهم، يعني لابدّ أنّ يخيفك هذا الحديث: أنّه ذرّة من **كِبْر** كفيلة لمنع الإنسان من أن يدخل الجنّة ابتداء.

«فقَالَ رَجُلٌ» يعني رجلٌ من الصّحابة في مجلس النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يسمع منه: «إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً» فهو ظنّ التّعارض، وكأنّه يسأل هذا السّؤال: هل من **الكِبْر** أن يكون القلب يحبّ أن يكون الثوب حسنًا والنعل حسنًا؟

هل واضح سؤاله؟ فالآن هذا القلب ممكن يكتسب كبيرة: (فهل لو أحببت في قلبي أن يكون نعلي حسنًا وثوبي حسنًا، أكون أذنبت؟) قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» وهذا الحديث في مسلم.

وهذا الجزء يثبت صفةً عظيمة لله: أنّ الله -عزّ وجلّ- «جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» لن نناقشها كثيرًا لكن ملخّصها: أنّ العبد لابدّ أن يَبْرُزَ لربّه جميلًا، والجمال في العبد يبدأ من جمال الباطن، الّذي يُخرج جمال الظّاهر؛ فجمال الباطن يُخرج جمال الظّاهر وفي كلّ موطنٍ بحسبه.

ماذا يعني في كلّ موطن بحسبه؟ انظري الآن الجمال:

في نهار عرفة: ما جمالك في نهار عرفة؟ أشعث، أغبر، يمدّ يده لربّه منكسرًا، ذليلًا، سائلًا، مقبلًا: هذه صورة الجمال الآن في عرفة.

والنّاس ذاهبون إلى المساجد مثلًا: هناك صورة أخرى من الجمال.

وكلّ صاحب نعمة: لابدّ أن يَظْهَرَ عليه من آثار نعمة الله ليقول بها: (قد أنعم عليّ ربّي) يعني حتّى الّذي يتجمّل في ظاهره يتجمّل بقصد أن يقول: (قد أنعم عليّ ربي).

والمعنى هنا: أنّ كثيرًا ما تسمع النّاس في المجتمع من باب الفخر و**الكِبْر** يستعملون الجمال، وفي الحديث هنا أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ينفي: أنّ حبّ الإنسان أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا أن يكون من **الكِبْر**.

في حال هذا السّائل مجرّد حبّ النّعل الحسن، والثّوب الحسن نفسه ليس **كِبْرًا**، لكنّ حبّ أن تكون خيرًا من غيرك في النّعل الحسن، والثّوب الحسن، سيرجعنا إلى نفس القصّة وهي: **الكِبْر**.

ما دمتم تُدخلون أيّ أحد معكم في القضيّة وتريدون أن تكونوا خيرًا منه، فهذا **كِبْر** مباشرةً!

فإذًا القاعدة واضحة: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ هي هذه الجملة: أن تبحث أن تكون خيرًا من غيرك! وطوال الوقت هذا الّذي تفكّر فيه!

ولذلك فإنّ من تلبس وتُحسن في الملبس وبعد ذلك تقولين لها: (ماذا تريدين بهذا؟) تقول لك: (لا! لا! أنا ألبس لنفسي)! وانظري لها وهي تجلس وحدها في منزلها -الله يعينها- فهو ليس من أجل ذلك وإنّما من أجل النّاس.

وأصلًا حين تلبسين حسنًا وتظهرين نعمة الله عليك وتكونين طاهرة القلب حقًّا، قولي لنفسك: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» ها هو النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يقول للصحابيّ: (إذا أحببت أن يكون نعلك حسنًا وثوبك حسنًا) يعني أنت بنفسك نظيف، وأظهرت نعمة الله، فلا تقل: (من أجل نفسي) فهذه ليست من ثقافتنا! ولا من كلامنا! لكنّه كلام دارج على اللّسان! والصّحيح أنّك في الخفاء والعلانيّة سيكون مقصدك ألّا يراك الله إلّا في حال من إظهار نعمة الله عليك.

هل واضح هذا الجزء؟ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» يعني ما دام أنّك لا تريد أن تفخر على غيرك؛ فثوبك الحسن ونعلك الحسن ليس **كبرًا**.

هل يمكن أن يكون هذا تبذيرًا؟ هذا كلام آخر، يعني هذه ضوابط أخرى تُدرس بعد ذلك وحدها في اللّباس، لكن نحن الآن فقط نناقش النّيّة.

ماذا تقصد الآن فقط في هذا الجزء؟ حبّ النّعل الحسن، والثّوب الحسن، وإظهار نعمة الله بدون أن تريد أن تظهر أنّك خير من غيرك،

هذا ليس له علاقة **بالكِبْر**؛ فإذَا دخل في غيره من المشاكل عندها نضع الضّوابط الأخرى. وهذا ليس موضوعنا الآن.

التّعليق على الجزء الثّاني من الدّليل الثّالث: (٢) تعريف النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- للكِبْر بنتائجه: «بَطَرُ الْحَقِّ»

الآن عرّف النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- **الكِبْر**، وهنا التّعريف **للكِبْر** بنتائجه: نتائج **الكِبْر**، يعني ماذا يحصل حين **يتكبّر** الإنسان؟ ما هو المعيار الّذي تعرف به أنّ هناك **كِبْر** في القلب؟ المعيار كما في النّصّ له وجهان:

الوجه الأوّل: وجه متّصل بالحقّ الّذي أتى به الشّرع وأتى به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

الوجه الثّاني: وجه يتّصل بالخلق.

ركّزوا هنا جيّدًا لأنّ هذه النّقطة هي الّتي تبعدنا عن حالة إبليس:

فإذًا كم وجهًا الآن؟ وجه يتّصل بالحقّ: فكأنّك بين قوسين تقولين: (الله -سبحانه وتعالى- ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم- والشّرع) هذا الوجه الأوّل؛ والوجه الثّاني: الخلق.

يعني **التّكبّر** إذا كان في القلب سيخرج بواحد من صورتين أو بالصّورتين معًا على حسب الموقف:

- صورة مع الحقّ: وأنت تعرفين ما هو الحقّ.

وصورة مع الخلق.

ماذا يعني الحقّ؟ الحقّ يعني

⇐ الله -عزّ وجلّ- وأوامره.

⇐ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وأوامره.

⇐ الشّريعة عمومًا.

ماذا يعني «بَطَرُ الْحَقِّ»؟

«بَطَرُ الْحَقِّ» صفة إبليسيّة تعني ردّ الحقّ على قائله مع بيان أدلّته.

مثل: إبليس بالضبط! الآن إبليس فيما هو متبيّن، عَبَدَ كلّ هذه العبادة لأجل أن يعلو عن أمثاله من الجنّ! فهذا مقصده: يريد العلوّ عنهم! يريد أن **يتكبّر** عليهم! يريد أن يصبح أحسن منهم! فكيف انكشفت هذه الحقيقة؟ حين جاء أمرٌ! هذا الأمر كان فيه الحقّ كلّه؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- ما أمر الملائكة بالسّجود إلّا حين أظهر فضل آدم عليهم، بماذا؟ بالعلم؛ أظهر فضل آدم عليهم ثمّ بعد ذلك أمرهم بالسّجود.

إذًا كان الواجب حين ظهر الحقّ وعلم أن آدم عليه السّلام خير منه -كما ظهر من حالته في العلم، وكما ظهر من أمر الله أن يسجدوا له تحيّةً وإكرامًا- أن يسجد له.

امتناعه معناه: ردّ الحقّ. ولذلك النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ». بكلمة مختصرة فإنّ «بَطَرُ الْحَقِّ» يعني ردّه، دفعه على قائله، ردّه على قائله.

هذه الصّفة الإبليسيّة لا تظهر ونحن في الرّخاء! لا تظهر إلّا حين يأتي الحقّ مصادمًا للهوى! لا تظهر هذه الصّفة الإبليسيّة إلّا حين يكون الإنسان أصلًا:

⇐ يرى نفسه أعظم من الشّرع!

⇐ يرى فهمه خير من فهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم!

ومن فهم السّلف الصّالح! فماذا يحصل؟ يردّ الحقّ مع بيان أدلّته.

دعونا نضرب مثالًا لكي تتصوّروا: الآن المثال ليس له علاقة مباشرة بالحقّ الّذي فهمناه، الّذي هو بمعنى: الله ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم- والدّين، لا! أنا أقصد أنّه الآن تصوّري: هذه نفسيّة إنسان، تصوّري نفسيّته أوّل مرّة وبعد ذلك تخيّلي مثل هذا، ماذا سيحصل منه أمام الدّين؟ هذا لو دخلتِ في أيّ نقاش معه:

نفترض مثلًا: عنده هاتف محمول من شركة معيّنة، وأنت عندك هاتف من شركة غير شركته. نجلس في المجلس، من أوّل ما نبدأ لابدّ أن يقول بأنّ: (هاتفه أحسن من هاتفك)! وبعد ذلك تقولِين له: (هناك

ميزة كذا وكذا) يقول لك: (لا!) ويدور، ويدور، يريد أن يثبت أنّ هاتفه أحسن من هاتفك!

بعد ذلك يأتي طرف ثالث ويقول: (هذه إحصائيّة تدلّ على أنّه كذا وكذا) وأنا سأفترض افتراضات: أنّه ليس هاتفه، الهاتف الثّاني أحسن، فيقول: (هؤلاء في الإحصائيّات كاذبون، هذا كلّه تسويق، هذا كلّه كذا وكذا) فإذَا ما انتهينا من هذه الإحصائيّة، يأتي إثبات أكثر، وكلّما أتيت له بإثبات يردّه!

ودارت الأيّام وبعد ذلك لا أدري ماذا حصل له! وذهب اشترى الهاتف الثّاني الّذي هو مثل هاتفك! فالآن لأنّه هو الّذي اشتراه نبدأ في قصّة مدح الّذي اشتراه هو! وإثبات أنّه هذا هو الأحسن! ودائمًا القاعدة عنده: (أنا صاحب الاختيار الأصحّ! أنا الّذي أفهم! إذَا أنا وافقت فإذًا هذا الشّيء جيّد! وإذَا أنا لم أرضَ معناه أنّه سيّء!)!

تصوّري هذه النّفسيّة: هي النّفسيّة الّتي حين تستقيم على الحقّ؛ فإنّها تستقيم، وتذهب تحفظ القرآن، وتجلس في مجالس الذّكر؛ متى تقبل الحقّ؟ إذَا هي ابتدأته! يعني تصوّري مثلًا: تحضر درسًا، وتسمع حقًّا، وتذهب للجلوس مع النّاس وتقول لهم حقًّا وكلّ شيء؛ لكن دَعِي أحدًا يقول لها!

والحديث فيه وجه ثانٍ: فقط هي الّتي تتكلّم وهم لا يتكلّمون! هي الّتي رأيها صحيح وهم رأيهم غير صحيح! تحثّهم على العلم فيذهبون إلى العلم لكن لا يذهبون إلى المكان الّذي أخبرتهم عنه وإنّما يذهبون إلى

المكان الّذي بجانب منزلهم، نفترض تقول لهم: (تعالوا احفظوا القرآن في مدرستي مثلًا) فمثلًا: هم لا يجدون مواصلات أو أيّ سبب، وحتّى إن لم يكن هناك سبب المهمّ أنّهم ذهبوا إلى المسجد الّذي بجانبهم؛ فتقول لهم: (لا! غير صحيح! لابدّ أن تذهبوا إلى المكان الّذي أخبرتكم عنه!)!

فهذه التّفاصيل الشّعوريّة: أنّه فقط اختياري هو الصّواب! فقط الّذي أنا أقوله هو الصّواب حتّى في الشّرع! هذا هو الّذي سمّاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «بَطَرُ الْحَقِّ» ردّه على صاحبه، يعني ما يصبح المهمّ الحقّ وإنّما يصبح المهمّ أنا:

⇐ إذَا أنا تبنّيت الرّأي أوّلًا؛ فإذًا رأيي هو الصّحيح وخذوا به!

⇐ وإذَا أنا ما تبنّيت الرّأي وأنت سبقتني في تبنّي الرّأي؛ فإذًا لا! لابدّ أن أنقّب فيه مائة عيب وأردّه عليك!

هذا بالضّبط هو: «بَطَرُ الْحَقِّ» بحيث أنّ الإنسان لا يبحث عن الحقّ؛ وإنّما يبحث عن شيء هو يعلو به! ويصبح كبيرًا به! وهو الّذي يصل به إلى السّلطة! السّلطة! السّلطة! هي المشكلة في ماذا؟! في السّلطة! هذه شهوة أعظم من شهوة المال! أنّه يرى نفسه فوق!

على كلّ حال، ستأتينا كبيرة خاصّة أدقّ في التّفاصيل؛ اسمها: كبيرة العلوّ، وهي كذلك أدقّ في تفاصيل هذه المشاعر! **والكِبْر** والعلوّ متداخلان، في وقتها نتناقش ونزيد المعنى بيانًا.

المهمّ: فإنّ التّخلي عن هذا **الكِبْر** أمر شديد جدًّا في الصّعوبة! يعني أنت لا تتصوّري أنّ الدّائرة دائمًا لابدّ أن تكون كبيرة! لابدّ أن **نتكبّر** على الخليقة كلّها! ليس مثل إبليس! ليس مثل قارون! ليس شرطًا! فحتّى لو كانت جماعة صغيرة فإنّه يكون في القلب إرادة العلوّ عليهم!

الآن ما هو الضّابط الّذي تعرفين به؟ أو ما هو المؤشّر؟ الحقّ حقّ إذَا جئت به أنا! والحقّ باطل إذَا جاء به غيري!

مرّة أخرى: من أجل أن نشرح: «بَطَرُ الْحَقِّ» ونعرف المؤشّر؛ سنتأكّد جميعًا أنّ هذا في مجتمع يعرف الحقّ وليس في مجتمع لا يعرف الحقّ! يقول هذا صاحب «بَطَرُ الْحَقِّ»: (الحقّ حقّ إذَا جئت به أنا! والحقّ باطل إذا جاء به غيري!)

مؤشّر «بَطَرُ الْحَقِّ» أن يكون قصد صاحبه أنّ الحقّ إذَا كان سُلطةً على رقاب النّاس أصبح حقًّا وأمّا من أجل أن يستسلم هو للحقّ ويصبح تابعًا فهذا لا يقبله ويرفضه وهذه هي: الصّفة الشّيطانيّة.

فكّروا في اليهود: لمّا قال الله -عزّ وجلّ- لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1] كيف كانت حالتهم؟ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

(١) البقرة: ٤٤.

وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ حالتهم: أنّ الأحبار والرّهبان كانوا يأمرون أتباعهم بالإيمان باليهوديّة: بالإيمان بالله وبالصّلاة وبالصّيام الّذي في دينهم، ولمّا جاءهم الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- يأمرهم بالإيمان بالله وبالصّلاة وبالصّيام، ماذا فعلو؟ رفضوا وردّوا الحقّ!

إذًا هم ليس قصدهم الحقّ وإنّما قصدهم أنّ الحقّ الّذي معهم يكون سُلطة على رقاب النّاس! فإذَا كان سُلطةً على رقاب النّاس أصبح حقًّا! ومن أجل أن أستسلم للحقّ سأصبح أنا تابعًا! لا! لا أقبل! وهذه هي: الصّفة الشّيطانيّة!

متى كان يعبد إبليس؟ متى كان يطيع؟ في الوقت الّذي لا يوجد فيه أحد سيرتفع فوقه! فهو كان يأتمر ويعبد ربّنا حين كانت هذه العبادة ترفعه! وأمّا حين كانت الطّاعة ستسبّب لي أن أكون أقلّ وأدنى ما هي النّتيجة؟ رفض الحقّ! إذًا هذا اسمه: «بَطَرُ الْحَقِّ».

دعونا نرى: «غَمْطُ النَّاسِ»:

التّعليق على الجزء الثّاني من الدّليل الثّالث: (٣) تعريف النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- للكِبْر بنتائجه: «غَمْطُ النَّاسِ»

(عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فقَالَ رَجُلٌ: يا رسول الله إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ

حَسَنَةً قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم.).

فإذًا الجزء الأوّل كان: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» تعظيم شأن **الكِبْر**، التّخويف من **الكِبْر**.

الآن الجزء الثّاني الرّجل ماذا قال؟ «إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً». سؤال الرّجل يعني أنّه استشكل عليه الشّأن: «إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً» فظنّ أنّ هذا من **الكِبْر**.

الجزء الثّالث: جواب النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على الإشكال؛ وهو الّذي جاء منه تعريف **الكِبْر**، أو تفاصيله، أو مؤشّره، يعني المؤشّر الّذي يدلّ على أنّ هناك **كِبْر**.

فإذًا عرفنا الجزء الأوّل من المؤشّر: **الكِبْر** ما هو؟ «بَطَرُ الْحَقِّ» ما معنى «بَطَرُ الْحَقِّ»؟ ردّه على صاحبه.

الآن نأتي إلى «غَمْطُ النَّاسِ»: «غَمْطُ النَّاسِ» بمعنى: احتقارهم، الاحتقار.

ونأتي هنا في الاحتقار، ونرى أنّ الاحتقار له أسباب ما لها نهاية، يعني لا تظنّي الاحتقار سببه أنّ هذا عنده مال وهذا ما عنده مال! لا! فكّروا وسترون كيف أنّ أسباب الاحتقار لا نهاية لها! بل إنّ النّاس يولّدون لأنفسهم أسبابًا للاحتقار!

دعونا نرى مثلًا: لمّا جعلنا الله -عزّ وجلّ- شعوبًا وقبائل؛ لماذا جعلنا شعوبًا وقبائل؟ لتعارفوا! النّاس ينظرون إلى الشّعوب والقبائل ليتفاخروا، فيرون الشّعوب والقبائل فخرًا وليس من أجل التّعارف! فمن ثمّ فإنّه لا يكون عنده مال ولا أيّ شيء لكن يرى نفسه! يقع عنده غمط النّاس من جهة النّسب، يعني يرى نفسه خيرًا من غيره!

حسنًا، لكن هناك أنساب شريفة مثل: نسب النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، فهذه الأنساب شريفة، إذًا أين الإشكال؟ الإشكال أنّه حين يرى الإنسان أنّ هذا النّسب هو الّذي يجعل له عند الله مكانة! هذا هو احتقار النّاس.

تصوّري: بأنّك تذهبين إلى الحرم، وأنت تكونين عربيّة، وذات أصول معروفة، بعد ذلك يأتي أناس من شرق آسيا ومن كذا وكذا من أواسط آسيا، ما هي المشاعر تجاههم؟ المشاعر العامّة أنّهم أقلّ منّا، هذه هي المشاعر العامّة! ويا ليت أقلّ منّا في الدّنيا! لا! وإنّما أيضًا عندنا مشاعر أنّ الله سيدخلنا الجنّة! على أساس أنّنا ضامنون!

فإنّ هذه المشاعر نفسها قد تأتي لامرأة مستقيمة وطيّبة وزوجها يحاول أن يقوم للصّلوات، فتقول له: (أنا أدعو لك بأن يُدخلك ربّنا الجنّة معي)! هل تُلاحظون؟ حتّى لو ما صرّحت! ففي مشاعرها: (يا ربّ، سيكون معي زوجي أو لن يكون)! فكأنّها هي ضمنت!

هل ترون فإنّ هذا كلّه اسمه: احتقار النّاس! يعني ليس شرطًا أن يكون الاحتقار محصورًا في أن يكون فقط: واحد عنده مال وواحد ما عنده مال!

ثمّ بعد ذلك يأتي يقول لك: (والله أنا لا أحتقر النّاس! فأنا أحبّ الفقراء! وأجلس معهم وآكل معهم، وما عندي أيّ شيء!) فيري نفسه أنّه بهذا قد ذهب عنه الاحتقار! لا!

ومصيبة الاحتقار العظيمة: أنّه لو كان في شأن الدّنيا فإنّه أهون من أن يكون في شأن الدّين!

لأنّه مثلًا: العرب يظنّون أنّ الدّين الإسلامي ملكهم، ويرون أنّ غيرهم من باب زائد على الدّين، ما يدرون أنّه سيأتي في آخر الزّمان وينقرض العرب أصلًا وما يبقى الدّين إلّا عند الرّوم. الرّوم في آخر الزّمان سيكونون هم أهل الدّين؛ فالعرب عمومًا سينقرضون قبل آخر الزّمان كما في الرّوايات الصّحيحة -ليست هذه المعلومة الّتي سأشرحها الآن-.

الشّاهد الآن: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» الذّرّة من **كِبْر** الّتي في داخل القلب لها مؤشّرات:

المؤشّر الأوّل: «بَطَرُ الْحَقِّ».

المؤشّر الثّاني: احتقار الخلق.

لازال الكلام حول احتقار الخلق؛ لكن من أجل ألّا تفوتنا هذه النّقطة:

⇐ لابدّ أن تعرفي: أنّ الإنسان دائمًا يُعَرّض لاختبار في اجتنابه الكبائر.

يعني أنت تشعرين بأنّك ليس لك علاقة **بالكِبْر**؛ فيأتيك موقف: فهل أنت تختارين الحقّ أم لا تختاريه؟ تردّينه على أهله أم تأخذين به؟

أنت تقولِين: (أحيانًا أنا لا أستطيع أن أقوم بالحقّ) هناك فرق بين أن تقولي: (أنا لا أستطيع أن أقوم به) وبين أن تردّيه فلا تعتبرينه حقًّا!

مرّة أخرى: حاولوا التّركيز في هذه النّقطة: أحيانا لا تكون لديّ القدرة على القيام بالحقّ وممارسته، يعني

⇐ تأتي تقول لك: (إنّه من حقّ جارتك عليكِ كذا وكذا وكذا..) فتقولين: (لا! ليس من حقّها)! هذا اسمه ردّ الحقّ، هذا هو **الكِبْر**.

⇐ لكن أن تقولي: (أنا مؤمنة أنّه من حقّها، والنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم- قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1] لكن أنا لا أستطيع، نفسي لا تقبل ذلك، الله يغفر لي ويعينني).

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧).

فرق كبير كالفرق بين السّماء والأرض: واحد يطلب العون ويعرف أنّ هذا حقّ؛ فهذا ليس له علاقة **بالكِبْر**. لكنّ الثّاني يردّ الحقّ أصلًا؛ ويقول: (لا! هذا ليس حقًّا)! طبعًا هذا الكلام فيه بعد ذلك تطاول! فممكن يأتي يقول: (لا! ليس حقًّا! والشرع كيف يأمرنا بكذا؟!) فقد يصل هذا إلى التّطاول على الشّريعة!

نأتي إلى احتقار الخلق: دائمًا تشعر بأنّ نفسك ليس لها علاقة باحتقار الخلق، وأنّك بالعكس تحترم النّاس؛ لأنّه ماذا يكون أمام الاحتقار؟ الاحترام، احترام النّاس. فدائمًا تشعرين بأنّك تحترمين النّاس، وتأتي في مواقف، يكون الموقف من الصّعب أن يحصل فيه احترام، أو أنّك لا تستطيعين ذلك!

أو يأتي مثلًا: يخطب عندكم أناس لا يوجد تكافؤ بينكم وبينهم، فالتّكافؤ هو شرط شرعي في الزّواج، التّكافؤ من أجل أن ينجح الزّواج، لابدّ أن يكون هناك تكافؤ بين الأطراف؛ من التّكافؤ: التّكافؤ النَّسَبِي: أن يكون هناك تكافؤ نسب من أجل أن يستمرّ الزّواج: فهناك فرق بين أن تطلب التّكافؤ وبين أن تحتقر النّاس!

فما هو الفرق الآن؟ جاؤوا أناس لا يناسبوننا لأيّ سبب: أنت فكّري في استمرار الزّواج؛ فالقبائل والشّعوب لابدّ أن يكون فيها من الطّبائع ما فيها، الشّيء الّذي يجعل كلّ النّاس مختلفين في أصول خلقتهم؛ فحتّى القبائل والشّعوب في أصول خلقتهم، بمعنى: جبلّتهم وطبائعهم الّتي خلقهم ربّنا عليها مختلفة. هذا شيء، وشيء آخر لا يتّصل بالبيئات

والاختلاف فيها، يعني هؤلاء تربّوا بطريقة وهؤلاء تربّوا بطريقة؛ هؤلاء عندهم أُسس وهؤلاء عندهم أُسس في حياتهم.

نحن لا نستطيع إنكار كلّ هذا؛ فحين تفكّرين في عدم قبول أناس لأنّهم غير مكافئين لك؛ فهذا لا يعني أنّك تحتقرِينهم؛ فهذا شأن وهذا شأن آخر.

متى يحصل الاحتقار؟ حين تشعرِين أنّ هؤلاء لماذا أصلًا يفكّرون في الزّواج؟ كيف يتجرّؤون أصلًا ويخطبون من عندنا؟ هذا هو الاحتقار.

لكن أن تأتي تقولِين: (لا يوجد تكافؤ بيننا، والتكافؤ يجعل الزّواج ناجحًا) فإنّ هذا كلام آخر.

يعني:

⇐ حين يرى الإنسان نفسه فوق النّاس فإنّه يقول: (أصلًا كيف تجرّأتم تأتون وتخطبون من عندنا؟ أما تعرفون من نحن؟) هذا هو **الكِبْر**: احتقار النّاس.

⇐ لكن حين تقولِين: (الله يحيّيكم، ومرحبًا بكم، لكن التّكافؤ في الشّرع مَطلب، ونحن لسنا متكافئين؛ سبب التّكافؤ أنّنا نحن من جهة وأنتم من جهة): هذا يحقّ لكِ في الشّريعة.

فلابدّ أن تعرفوا الحدّ الفاصل دائمًا بين الأمور؛ فلا تختلط عليكم الأمور وتحصل أخطاء؛ هذه الأخطاء قد تسبّب في أن ينتقد أحدًا

الشّريعة بعد ذلك! يقول: (أنا لم أكن أريد احتقاره لكنّي وجدته لا يناسبنا) لا! فإنّه في الشّريعة يوجد شروط أخرى لابدّ أن تلاحظها.

المهمّ: «بَطَرُ الْحَقِّ» أن يرى الإنسان نفسه أحسن من غيره.

لازلنا نرجع إلى ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فإذًا النّصّ الذي بعده:

التّعليق على الدّليل الرّابع: الغليظ الجافي

(وروى البخاري عن حارثة ابن وهب أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»[1] العتلّ: الغليظ الجافي والجواظ قيل: المختال الضخم. وقيل: القصير البطين. وبطر الحقّ: ردّه إذَا أتاك، وغمط النّاس: احتقارهم.).

سنرى «عُتُلٍّ»: النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في الحديث يقول: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟» وحين نسمع «أَهْلِ النَّارِ» فإنّنا سنرجع مرّة أخرى لنفس التّقسيم:

⇐ «أَهْلِ النَّارِ» بمعنى: الخلود.

⇐ و«أَهْلِ النَّارِ» بمعنى: الدّخول وليس الخلود، يعني الّذين يخرجون مطهّرين.

«كُلُّ عُتُلٍّ» عتلّ، يعني غليظٌ جافٍ؛ هذا الغليظ الجافي معناه واضح، بمعنى: أنّه من أهل النّار: هذا الإنسان الّذي لا يملك في كلامه وفي معاملته لين ورفق، وبعد ذلك دائمًا يقول لك: (أنا صريح! أنا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧١) ومسلم (٢٨٥٣).

صريح)! ويعطي الكلمات الّتي تسمّم الّذي أمامه! وكلّما زاد كلامًا ومعاملةً زاد غلظة وشدّة! المعاشرة مع مثل هذا ما فيها إلّا اللّهم سلّم، اللّهم سلّم لأنّه طوال الوقت ينزع حقّه، طوال الوقت يُضاربك على حقّه، يعني لو دستِ على طرفه، ما تنتظرين إلّا بركانًا! فهو غليظ وجافٍ!

ولذلك فإنّ الكلام الطّيّب في الشّريعة: صدقة. فالّذي يتخلّى عن الكلام الطّيّب رويدًا رويدًا سيصبح غليظًا جافيًا.

وهذه المشكلة مقياسها صعب جدًّا؛ فمقياس الغليظ الجافي صعب لأنّه أحيانًا كثيرة تكون هذه المجتمعات الكلام فيها هذا سهل، يعني تتكلّمين بهذه الطّريقة ما يكون صعبًا، لكن تخرجِين من هذا المجتمع وتذهبِين إلى مجتمع آخر فيصبح هذا الكلام من الكلام الغليظ، الّذي ما فيه رفق!

لذلك المقياس الصّحيح في مثل هذا: أنّه في كلّ مرّة في أيّ مجتمع كان، تريدِين أن تُخرجِي من لسانك كلمة -قدر ما تستطيعين طبعًا- فكّري: هل هناك ألين منها؟ إذَا كان هناك ألين منها؛ اختاريها من أجل أن تُكتب لكِ صدقة.

ولذلك وأنتِ غضبانة وقد وقع عليك الغضب: لا تمسكِي هاتفكِ وتكتبِي! لا تمسكِي هاتفك وتسجّلِي! لا تفعلي ذلك؛ لأنّه في مثل هذا الوقت لن تفكّري أبدًا في الرّفق واللّين! ويصير في هذه اللّحظة أن

تتعرّضي لأن تكوني الغليظ الجافي الّذي قال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فيه: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟» فهكذا تعرّضين نفسك لمثل هذا!

ونحن نتصوّر أنّ طريقة الكلام والمحادثة إنّما تعتمد على الذّوق، وعلى الأمور الاجتماعيّة، لا! فإنّ طريقة الكلام إنّما هي ممّا في القلب من إيمان؛ فكلّما زاد الإنسان إيمانًا أصبح ليّنًا، واللّين هذا ظهر مع المسلمين، اللّين عند المؤمنين أوّل ما يظهر فإنّه يظهر في معاملة المؤمنين.

هناك ثلاثة عوامل تسبّب أنّ يكون الإنسان غليظًا جافيًا:

الأمر الأوّل: أن يكون تربّى على الغلظة:

يعني مجتمعه كلّه غليظ، فحتّى هذا الّذي تربّى على الغلظة ليس معذورًا، لكن أنت فتّش في نفسك: هل سبب غلظتك الآن أنّك قد تربّيت على الغلظة؟ فدائمًا راجع ما تربّيت عليه؛ لكي تتكلّم بطريقة صحيحة، وتأخذ الأمور بطريقة صحيحة.

الأمر الثّاني: شدّة الحرص على الحقوق:

يعني الإنسان حين لا يكون ليّنًا وليس لديه استعداد لكي ينقص من حقّه، قد يحصل أنّه هو أيضًا يُنقص من حقّ النّاس، فنحن نعيش مع بعضنا ولابدّ أن يحصل أنّه قد ينقص من حقّه، فلا تصبح مصدرًا للإزعاج! فكلّما زاد الإنسان إحساسًا بالحقوق ومطالبةً بها كان في

المقابل لابدّ أن يكون غليظًا جافيًا، يعني لا يتنازل عن بعض حقوقه! ما يلين في المواقف! ما يقبل أنّه هذا ممكن وهذا غير ممكن!

المهمّ، فإنّ هذا أمثلته كثيرة في حياتنا! لكن بعض النّاس يعتقدون أنّ الحياة تمشي على مسطرة، لا تذهب يمينًا ولا يسارًا! ولا يحصل أيّ شيء ممّا يحصل من معاشرة النّاس لبعضهم! من الطّبيعي أن يحصل نقص في المعاشرة. فإذًا شدّة الحرص على الحقوق تسبّب أن يكون الإنسان غليظًا جافيًا.

الأمر الثّالث: صحبة أهل الغلظة:

فإذَا كنت طوال الوقت مع أناس غليظين؛ فمن الطّبيعي أنّك ستخرج لا تتكلّم كما ينبغي، لا تتنازل عن حقوقك، لست ليّنًا هيّنًا تبشّ في وجوه إخوانك، تشعر أنّ لهم حقوقًا تعطيهم إيّاها، ولا تنازعهم في حقوقك طوال الوقت.

فهذه الغلظة إنّما هي من نقص الإيمان؛ لأن الإنسان كلّما ازداد إيمانًا ازداد لينًا خاصّةً لإخوانه.

لأنّ الله -عزّ وجلّ- في كتابه حين أخبر في سورة المائدة عن أولئك القوم الّذين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ماذا كانت صفتهم؟ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿أَذِلَّةٍ﴾ يعني هذا اللّين، لين المعترك.

فالمشكلة: أنّ هذه الغلظة خصوصًا حين يكون عندك شيء من الاستقامة؛ فإنّ الإنسان يشعر أنّ كلّ شيء لابدّ أن يمشي على الصّراط المستقيم!

ترى مثلًا: شبابًا بجانب المسجد منشغلين، تفوت عنهم الرّكعة الأولى، والرّكعة الثّانية؛ فتخيّليها وهي تراهم من النّافذة من بيتها لم يصلّوا الأولى والثّانية، وبعد ذلك وقبل أن يُسلّم ذهبوا يجرون وجلسوا وأكملوا الصلاة كيف ما يكون! ثمّ قابلت أمّهاتهم في مجلس؛ فتعطيهم من الكلام الجافي: (أولادكم مهملون، ضائعون، ما هذه التّربية؟!) جزاك الله خيرًا!

انظري: فإنّ هذا الكلام الغليظ لن يأتي أبدًا بأيّ شيء! لأنّه في مثل هذا الموقف إذَا لم تعرفِي كيف تنصحينهم وكيف تصلِين إليهم؛ على الأقلّ لا تعيري الأمّهات بذلك! قولي لنفسك: (أنّهم ذهبوا للصّلاة وجلسوا في جلسة التّحيّات أحسن من أنّهم لا يصلّون أبدًا!) قولي لنفسك هكذا.

لكن لا! فإنّ المشكلة عندنا كأنّها مسطرة ونريد من النّاس أن يمشوا عليها: (هذا ناقص قليلًا في تصرّفاته! وهذا يتكلّم هكذا! وهذه حجابها غير شرعيّ!) فلا يوجد كلام طيّب من أجل أن يستقيم النّاس؛ وإنّما هناك كلام غليظ! فيصبح هذا مضرّة على الشّريعة، مضرّة على الدّين!

وسنرجع مرّة أخرى نقول: إنّما هو انعكاس **الكِبْر**؛ لأنّك ترى نفسك أحسن منهم! فحين ترى نفسك أحسن منهم فإنّك تعيّرهم بأخطاء ممكن أن يقعوا فيها؛ بينما هذه الأخطاء بنفسها حين تفكّر فيها تجدها خيرًا وبركة، يعني طوال الوقت قل لنفسك: (خير وبركة)

فمثلًا: تمشين في طريق، وتجدين جماعة على الرّصيف بجانب المحلاّت قد هيّؤوا مصلّى ويصلّون؛ وأنت ترين من بعيد منارة المسجد! فبدلًا من أن تقولي: (جزاهم الله خيرًا، فقد أدّوا صلاتهم) تقولِين: (والله إنّهم كسالى! ألم يكن من الأولى أن يذهبوا إلى المسجد!)! -إنّا لله وإنّا إليه راجعون- دائمًا تنظرين بماذا؟ تريدين الكمال لكلّ النّاس! وهذا أبعد ما يكون في الحقيقة! ففي الواقع ليس كذلك؛ فلا أنت بنفسك كاملة! ولا النّاس سيكونون كاملين! ولو قلّبت نفسك سترين بأنّ النّاس ممكن أن يروا من عيوبك ما الله به عليم! وهم ساكتون لأنّهم ليّنون، وأنت بلاء عليهم وتسلّطت عليهم! -الله لا يجعلنا تلك البلوى-

إن شاء الله في الأسبوع القادم نكمل الكلام.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته